رواية

زهرة النرجس

حسن إمامي

نادرا ما يستطيع مراهقٌ أن يلج مرحلته في توازن تام، بعيدا عن التوترات والانفعالات التي تحدثها يفاعته ونموه في المراهقة.

يتكئ على مقبض السياج الحديدي الصلب، أمامه خطان للسكك الحديدية. فعلا، كلها حديدية، إلا ما كان من الألواح الخشبية السميكة التي تفرقها في خطوط متوازية، والتي تنتصب في تراتبية عرَضية لانهائية مع امتداد البصر، تجعل من مسار السكة شبحَ تنينٍ لابداية له ولا نهاية.

ينتظر حظه في اختبار الدقائق التي جعلها استراحة من جولة في شوارع المدينة الجديدة. لعله خرج باكرا، فالساعة تشير إلى الخامسة بعد الزوال وواحد وعشرين دقيقة. في هذا اليوم المشمس من شهر ماي، احتجبت أشعةٌ حارقة خلف العمارات المتراصة بعلوها على طول خندق السكك الحديدية، وكأنه عالم مجتزأ من عالم الأنام الذين يعيشون بين الدروب والأزقة والشوارع، زاحفين من رصيف إلى آخر، أو ممتطين عربات تسارع عجلاتها زمنا أخرق لا ينتهي، إذ بمجرد ما تنتهي ليلة يبدأ يوم جديد من الحركة والضجيج. هو العمران الذي يحتوي هذا البشر.

ساعد هذا الظل فؤادَ في وقفته واستراحته. أعاد له هدوء شرايينه من فورة مشي وتصبب عرقٍ بدأ جبينه يندّ به. تمعن في استدارة حذائه وصفحته العليا. تأكد من لمعانه. لم تخلُ نظرته من نرجسية تفقدت استقامة القميص الجديد فوق كتفيه وحزامه الجلدي العريض الذي أكسبه قبضة رعاة البقر بيديه على واسطته الحديدية. شعور بنشوة وقوة استشاطت لها أطرافه، لكنه يلجمها افتخارا بنتائج حصصه التدريبية في قاعة كمال الأجسام التي يحج إليها ثلاث مرات في الأسبوع تقريبا.

الخمسون درهما التي ترقد في جيبه منذ الصباح، جعلت لخياله وأحلامه أجنحة طيور وسماوات متعددة. كم من مشروع خطّه ذهنه. لكن الخطوات كانت واقعية. ربما سيلتقيها في هذا الأصيل. ربما سيعزمها على فنجان قهوة، ويقومان بجولة عبر شوارع المدينة. لم تُجبه على الرسالة المكتوبة عبر الهاتف. ينتظر حظه في مصادفة مرور القطار لحظة وقوفه فوق القنطرة، وحظه كذلك في تلقي رسالة منها.

تقترب منه امرأة مسنة في جلباب أزرق داكن، تحملق في عينيه لتحدس أمرا غريبا ربما خالج ذهنها. ينظر إليها مبتسما. تسأله:

ـ وليدي لاباس؟

ـ الحمد لله آ الحاجة.

ـ اسمح لي تغالطت لي مع ولد الجيران. الله يرضي عليك آ ولدي.

تتابع خطواتها المتثاقلة، وتردد لازمة ربما لم يسمعها فؤاد: (الله يكتب علينا مكاتيب الخير). في نهاية زاوية الطريق والشارع تلتقي إحدى معارفها وتفرغ عليها مظنون تخوفاتها: شفت شاب واقف فوق القنطرة وخفت أن يرمي نفسه من فوقها وينتحر. (الله يكتّب علينا مكاتيب الخير).

ليست ككل الفتيات. عيناها توقعان بنظرته دهشة تذهب كل اندفاع جنسي تجاه الآخر، تتكلمان فرحا وبراءة وترحابا في التواصل. لكن ذلك الصفاء هو ما أخافه، ما جعله يعيد النظر في اندفاعاته وجرأته المتشيطنة مع حيل العصر وحياة الشباب والمراهقة. نظرتها، تطلب منه أكثر. سألتقيك، وأحاورك، وأجلس معك في مقهى، ولكن، كيف تكون أهلاً لأكثر من هذا، مناسبا لما هو أرقى؟ شعوره الذي آرقه ليلة أمس، ترديد صوتها الذي همس إليه كل حين في عتمة الليل الهادئ داخل غرفته ودفء سريره.

اسم بدلالات متعالية في أحلامها كما في نظرة عينيها. رشاقة الثمانية عشر ربيعا. شعر منسدل في لون ذهبي لامع. ملامح قسمات دقيقة ومتكاملة أو كما يحلو لفؤاد وصفها به، سمفونية موزعة بألوان رسام على لوحة موسيقية خارقة.

لا يدري كيف استطاع تركيب هذا التشبيه. ما يحدس له هو بحثه المستمر عن ألفاظ وأفكار جديدة تميزه عن أقرانه. كلما كانت المناقشات، استطاع من خلالها أن يُسمِع الآخرين تميّزه في الكلام. عُدة ثقافية يحتاجها كل الشباب من أجل جذب صُدف فرص جديدة في التواصل والتعارف وفتح أبواب المستقبل.

كانت جملته السمفونية، شهادته الجديدة على أسماء، والتي أضافتها لقائمة ما رسمتْ به هويتها الأنثوية التي تريد التفرد بها دون الجنان ودون الأشجار ودون الورود أو الزهور. تفردٌ ترسم به عالم أحلام مستقبلها. هذه المرة، كان لكثافة

جملة فؤاد ما جعلها توسع من قدرات وطاقات ذهنها لكي يحتضن هذه الصورة. تتذكرها مع عشيقتها في الغناء وسماعه، مع إليسا التي تملأ عالم غرفتها صورا على الجدران وموضة اللباس وتسريحة الشعر وألبومات غناء، وصوت مغرد بين ممرات غرف المنزل ومسارات الشوارع. إن لم تكن تلك السماعة التي تغوص بالسمع مع سحر أغنية فإنه صوت أسماء الذي تريّض على مقاطع ومطالع وتموجات أغاني إليسا. وذلك أجمل إحساس تعيشه أسماء في يوميّها مثلما تعيشه مع عنوان إحدى أغانيها: أجمل إحساس.

في لحظات فراغ الذهن، قد يعيش فؤاد توترات ذاكرة تقلقه مثلما تقلق أسماء. إنما، هل يشعر كل واحد بالآخر؟ ربما لا. تسائل نفسها: لو أنه تابع دراسته. كيف يمتلك مثل هذا الوصف والقدرة على التعبير به ولا يمتلك قدرة على التعبير في الدراسة والاستمرار فيها والنجاح؟ كان بإمكانه أن يجلس بين صفوف الطلبة في كلية الآداب. هل ظُلِم في دراسته واغتُصب حقه فيها؟

قد ترتعش يدا فؤاد وهو يحاول المسك على كلامه بقبضة أنامله فلا يستطيع. قبل هذه الجملة، حاول استعمال عبارات تقربه من الأنثى. أخفق مرات ونجح في أخرى. توتّر لاختلاف نوعية الجمل التي تناسب كل واحدة. كم تسبّب لنفسه في ردات فعل وسباب وشتيمة متبادلة. كم تلقى من نظرات احتقار واستصغار كانت أقوى وخزا من الكلام. كم بالمقابل استطاع أن ينتزع من ابتسامة مستحسنة تعبيره أو وعدا باللقاء. ما يزال لا يدري كيف يكون رديءُ الكلام هو الملائم في مناسبة دون أخرى، وجميلَه موافقا فتاة دون غيرها.

في بعض المرات، يتلفّظ بعبارة (اللحم معمّر)، أو (التوت مورق)، أو غيرها... يفاجَأ بالاستدارة والابتسامة والوقوف في انتظار مبادرته في الكلام. في أخرى قد ترجع عليه بحُمرة غضب وتقطيب حاجبين وسَبّ: (الويل)، (الموسّخ)، وغيرها مما لا يريد له استحضارا.

يكون الشارع ملتقى هذه المعارك وصدف التلاقي والتقاطع أو التنافر، وتلك سُنة الخلق في التواصل من دونه.

كانت أسماء في حيرة من أمرها. هو ابن الحي الذي تسكن فيه. يروقها في خفته ولباقته و ابتسامته التي توقع على حسن محيّاه. تلك الجملة التي وصفها بها، بقيت مكسبها في سماء سحبها التي تتفيّأ بظلالها. ترسم بها أحلامها الجديدة. تجلس أمام المرآة، تحاورها في الأحلام و الأمنيات. تتطلع لمعالم جسدها كل حين. مرة عارية و مرات في ارتداءٍ لم تعرض به الجسد المتجدد في كيانها. تشعر بلغته ومحاوراته. تنبعث التأوهات الغريبة التي تكتشف داخلها نبرات غريبة لصوتها.

تشعر بنمو أنوثتها كل يوم. النهدان اللذان تحولا بسرعة كبيرة من تمرتين صغيرتين إلى رمانتين أو تفاحتين. كل مرة تضعهما فوق كفّيها، تلامس ببصمتي السبابتين والإبهامين حلمتيها، ترعشهما بمسحة المرآة الباردة، تقيس وزنهما وتؤرجحما علوّا، تسابق ولا تسابق، وفي كل ذلك تحدس بركان الأنفاس الذي يريد التفجر، لكنها تغلبه في الإخماد رغم أن صوت إليسا يصيح طربا (أجمل إحساس في الكون أنك تعشق بجنون...). تراوغ المرآة والأغنية بابتسامتها وضحكتها الطفوليتين فتنأى عن تلك الأفكار الغريبة التي تتكلمها لغة الغدد والخلايا المشتعلة والعمياء... يكفيها أن تحوّل بصرها إلى بطنها المضمر وأن تستميل في رقصة حصان، في رؤية إلى جانب وخلف ردفيها مستعينة في كل ذلك بطيف مرآتها وانعكاساتها... حينها تغالب الشهوة المتسترة والراقدة في خلاياها المجهولة.

تزيد من حجم الصوت لكي تداعب إيقاعا جديدا. هذه المرة كان هو إيقاع المغنية المغربية أسماء المنور في أغنيتها (روح). تستقيل المرآة في استراحة من هذه المحاورة ويتخذ فضاء الغرفة مساحاته الممكنة للرقص. كلما واجهت جسدها من جديد أهدت للمرآة حركة جديدة ونظرة غريبة واعدة أو مهددة... تتفقد مذكرة رسائلها الإلكترونية، تجيب صديقتها سناء: ليتك كنت معي في جولة الرقص القائمة والصاخبة أيتها المجنونة.

خمس رسائل من فؤاد مبعوثة في هاتفها وفي بريدها الإلكتروني وعلبة محاوراتها الافتراضية:

ـ أنتظركِ منذ خمس عشرة دقيقة.

ـ أينك؟

...

انتابها قلق. لكن سرعان ما فاجأتها ابتسامة غريبة. سحرتها عبارة أغنية (مش حشوفك تاني) للمغنية شيرين... تبنتها لشخصيتها وتعالت عن قلقها... لن تخرج لملاقاته. لن تجيبه في الهاتف. استلقت كقضيب خيزران فوق سريرها الوردي، أبعدت نونوسها الرمادي (كوكو) من أمامها، فقد ضبطته يحملق فيها بعينيه الزجاجيتين. قبضتها على ضفيرة شعرها تماوج بها عينيها وتلاطم بها وجهها كل حين. تصارع بلطف حركاتها أفكارها المتزاحمة التي توترها للخروج دفعة واحدة

وتدوخ بالها المشوش... على شاشة الحاسوب يرسم الكليب الموسيقي في موقع اليوتوب، عالما مثاليا لإليسا في أغنيتها: حالة حب.

لا قياس مع وجود الفارق. عالم وردي وأحلام ساحرة بخيال فائق ومليء بالجمال في كل شيء. وابن حيّها يدعوها لتناول مشروب بأحد مقاهي المدينة !

ـ أستحق أكثر يا فؤاد.

فجأة اعتلت طموحاتها عرش الأماني وقررت: لن أواعده.

سناء، دائمة الابتسامة والضحك. جيوبها لا تخلو من دسم مشتهياتها في المملحات أو المسكرات. يوم ضبطها أستاذها لمادة اللغة العربية منهمكة في قضم مملحات البطاطس المقرمشة، أقام قاعة الدراسة صراخا يلومها فيه. لكن ما هو أقسى كان ذلك الدرس الذي تلقته هي وزميلاتها. كانت بينهن، هي الضحية و المتهمة في آن، أكثر. أفرغ جيوبها من كل مقتنياتها لذلك اليوم، حوالي ثلاثين درهما من الشوكولاته والمملحات المتنوعة والعلكة...

ـ لو أنك اشتريت كتابا بثمن هذه المقتنيات. لو أنك اتبعت حمية غذائية. لكن يبدو أنك ستكونين نسخة طبق الأصل للنساء السمينات اللاتي تؤثثن بيوت وشوارع هذا المجتمع. أنظري إلى نفسك يا سناء. كنت نحيفة ورشيقة قبل سنتين. يوم التحقت بالتعليم الثانوي التأهيلي. الآن، أنت مهددة بالسمنة.

احمرّ وجه سناء رغم الابتسامة التي بقيت محافظة عليها أمام أستاذها. تحترمه مثلما يحترمها هو كذلك، ومثلما يحترم باقي تلامذته. تقدر جهده ومصاحبته النفسية لتلامذته. كم استشارته في بعض المشاكل الذاتية والنفسية والدراسية، كم اتبعت نصيحته. لكن، بين السنة الأولى التي درست عنده دون السنة الثانية، وهذه السنة الثالثة لها داخل الثانوية، وقعت تغيرات كثيرة، بعضها لا إرادي في الشخصية كما في السلوك.

كان وقع الكلمات أوخز مما لو أمرها بالذهاب إلى الحراسة العامة ومكتبها. وكانت فرصته أنسب لتوجيه رسائله التربوية. بين منطق إقناعه ونزوات مرحلتها، كانت موجة الضحك من الاندهاش من الاستغراب من التساؤل حول مصير هذه المقتنيات. كانت مواقف رفقاء ورفيقات جماعة القسم متباينة وفرصة للتنافس والتشاكس. منهم من طالب بالعفو عنها بذريعة ظرافتها واجتهادها. ومنهم من طالب الأستاذ بأخذ كل الحلويات لأنه يبذل مجهودا عقليا كبيرا معهم وجِدّ صبور كذلك. ومنهم من اتهم الفتيات بتبذيرهن وانشغالهن عن الدراسة بها. ومنهم من طالب بأخذ تلك الحلويات كمكافأة لانتباهه حتى نهاية الحصة...

صديقتها أسماء، لم تتوقف عن ضحكتها المورطة لها هي الأخرى.

ـ انتبها معا وإلا أخرجتكما من الفصل الدراسي.

وكان اجتهادهما يشفع لهما في نهاية المطاف ونهاية الحصة. كانتا معتذرتين عما حصل، مطالبتين الأستاذ بقَبول تلك المقتنيات هدية. كان رافضا لعرضهما، مطالبا لهما بضرورة اتباع حمية غذائية واحترام حصة الدراسة. وكانت حصة الاستراحة مورطة للتلميذة سناء أكثر. ضحكاتها يخترق صداها الممرات أمام قاعات الدراسة.

كانت سناء هي من التجأت إليها أسماء لكي تحكي لها تورطها الجديد. صديقتها وكاتمة أسرارها والقريبة من سكناها كذلك. عنفوان شباب وأحلام وردية وبراءة تطلع. هكذا كان أستاذهما يتابع دراستهما وحضورهما داخل المؤسسة.

لكن، ما غاب عن تتبعه، وما تبنتاه معا ومع جيلها، آفاق أخرى يجهلها حتى الآباء والأمهات. غياب هؤلاء الراشدين لحظات القلق والتوتر، أو الخوف والتهديد، أو الفراغ والخواء الذي يفزع الروح في لحظات وحدتها أكثر... وليس كل ما يجترح به المرء يبوح به طبعا، خصوصا إذا كان اجتراح الأنثى أو الفتاة في أوج العنفوان وأوج تفجر هذا الجسد بتشكلاته الصدرية والردفية وغيرها...

رغم أن الأستاذ احتاج إلى استرجاع مظنوناته في الفهم، فإنه لم يحِط بواقعة التنزيل كلها. بحث في المعاجم اللغوية والنفسية والسوسيولوجية، وبما تأتى له من لغات، لكن كل هذا لم يسعفه في اتخاذ طريق لفهم نفسية تلامذته أكثر ولا حتى الآباء أو الأمهات استطاعوا ذلك...

كلما التقوا فيما بينهم هؤلاء الراشدون والراشدات، تبادلوا التخوفات والحسرات، تلك الشكاوى من جيل انفلت وينفلت من رقابة تربوية محكمة... جيل بعيد التفكير عن الواقع وعن الظروف والإمكانيات. أشكال استغراب مع علامات تعجب. عجز مع الزمن ومع أعباء ومسؤوليات مادية وغيرها. ذلك اليومي منفلت ومهدد فعلا. وإذا اتسعت دائرة التخوفات وتداخلت، أصبحت عالما لا يطمئِن بحروبه ومشاكله وتفجرات إعلامه...

سناء، رغم طراوة جسدها وخفته، أصبحت أطرافها هشة، وبدت معالم سمنة مقبلة. لكن، لا سبيل لإيقاف مدِّ أنواع معلبات مملحة و ألواح شوكولاته أو حلويات متنوعة. كلها تجد لشهيتها وأمعائها سبيلا وتتخذ لها طريقا... وهذا المدّ

الكاسح لسناء كان جزرا مناسبا لأسماء. صديقتان رسمت الحياة على أجسادهما اختيار ثقافات. وهل يسائل القدر روحيهما؟ كيف تتشكل الحياة؟

يعيش فؤاد داخل أسرة متوسطة الحال. أب موظف في الخزينة العامة بوزارة المالية استطاع أن يؤسس أسرة متكونة من ربة بيت متعلمة وثلاثة أولاد كبيرهم هو فؤاد. لكن فؤاد لم يستطع تكميل تعليمه. حسرة بقيت مدفونة في فؤاد والديه. ورغم ذلك يبقى أمل المستقبل الأحسن هو ما يعده به الجميع. رغم ذلك يبقى فؤاد متوفرا على كل ما يحتاجه في يوميّه ولباسه ورياضته وسفره... لكن هذا الفراغ الذي خلقه الانقطاع عن الدراسة أو الانفصال الذي لم يرضَ به ولا بالعودة كمستعطف، خصوصا وأن سنّه ميّزه الآن عمن سيدرس معهم وهم أصغر منه.

أخته سارة في الخامسة عشر من عمرها، وأخوه الأصغر عماد ذو السبع سنوات، كلاهما ينظران إليه بطلهما ونموذجهما في التطلع لتجارب الحياة وتذوقات جمالها وأحلامها. كل ما يشتريه من لباس أو ما يسمعه من موسيقى أو ما يناقشه في الرياضة أو ما رآه في سفر أو مغامرة، كل هذا نافذة أخويه على العالم. فكيف لا يكون فؤاد مثقف أخويه وقدوتهما. لكنه خارج هذه الصورة، جريد منفصل عن نخله في مواجهة العواصف، آخرها ذلك التنكر والغدر الذي أحسَّه في لامبالاة أسماء بعدم التزامها في مواعدته.

لم تثره المسألة في البداية، فربما هناك أعذار. لكن، أن تمر متجاهلة دون السلام عليه، فذلك ما أثار حنقه وغيضه منها. الأغرب في المسألة هو بحثها عن مرافقة ابن جيران آخر يسكن في حيهما معا. ما دامت المدينة القديمة مأوى الجميع، وما دامت دروبها الضيقة مسلك الراجلين الذين يتفرقون صباحا خارجها عملا أو دراسة، ويلجونها ظهرا ومساء لمنازلهم، سيكون العبور أمام فؤاد الذي يجد الوقت الكافي للوقوف بين زوايا ودروب المدينة القديمة مع أقرانه.

الحسين، في سن السادسة والعشرين. استطاع أن يتخرج من مدرسة متميزة ويعمل في وكالة بنكية بالمدينة العصرية. أنيق في بدلاته الجديدة وربطات عنقه وحذائه اللامع. يركن سيارته خارج أسوار المدينة القديمة ويكون ترجله لدخولها. كيف اختارت أسماء أن تجعله مرافقا في مناسبات الخروج والدخول التي يلتقيان فيها ربما صدفة؟ ذلك ما لم يعجب فؤاد طبعا. زاده توترا وشعر معه بالإهانة. وتلك صراعات كبرى عند الشباب في مرحلة المراهقة والعنفوان. أي بدائل تتبقى لتعويض هذا السقوط النفسي في بئر مشتعلة ومحتقنة؟ أبواب التنفيس التي تركها المجتمع لفؤاد واضحة للعيان: بائعو السجائر، وقاعات الشيشا وعالم الألعاب الإلكترونية الممزوجة بما سبق وأكثر. وكيف يثبت رجولته لنفسه أمام هذا التجاهل؟ لم يكن عذريا مائة في المائة. مارس الجنس وعانق الفتيات وجرّب أوكار الشهوة بما سنحت له به الفرص. وربما إذا سألناه عن كل ما تعلّمه سيجيبنا بأسرار الكبار و الصغار داخل المجتمع. حتى لطيفة، الفتاة التي لا تخجل من مصاحبة من أنجبها من شباب الحي، لم يجد في تقبيلها طعما ينسيه

غور حرقة الشوق لذلك اللقاء الذي رسم له أحلاما مناسبة ورومانسية مرجوة بالمتاح.

رومانسية؟ بقدر ما بدأ يفهمها، بقدر ما بدأ يجترح بغياب شروطها في حياته. رغم أن تعرفّه على المصطلح جاء خلال معركة تعلم ومحاربة للجهل.

يوم وصفته أستاذة الاجتماعيات وقالت له: ـ أنت رومانسي بزاف، اعتبر تصريحها شتيمة خصوصا مع تهكم أصدقائه عليه. سحب محفظته الظهرية وخرج دون استئذان من الفصل. حينما كبُر المشكل في مكتب الحارس العام، تعذّر واشتكى من الأستاذة. استغرب لردة فعل الراشدين من الإداريين والأساتذة الذين حضروا لمعالجة المشكل:

ـ أنت المحظوظ بوصف الرومانسي. وهل وجدنا نحن من يصفنا بذلك. كلنا يتمنى أن يكون رومانسيا.

رغم ذلك، وإلى يومه هذا، ما يزال يرتاب من وصف الرومانسي. قد لا يناسب المطلوب في الواقع. كيف تكون رومانسيا في واقع ذئاب وقانون غاب؟ ومع هذه الأفعى المختبئة في فرو مَها: أسماء؟ تبّاً لكل رومانسية رسمها الفنانون أو الشعراء أو غيرهم.

استطاعت أسماء أن تحفر خندقا جحيميا بدون قصد لمسار فؤاد. ورغم أن سناء كانت جمهورها في الحكي وتتبع أحداث المغامرات الشبابية المتهورة، إلا أنهما لم

يدركا ما آلت إليه سلوكات فؤاد ولا القدر الذي رسمه الشعور بالإحباط والإقصاء.

لن يُعدَم خدمة فيما مالت إليه نفسه. وهو الذي كرّس مرحلة شبابه للرياضة والأناقة، يجد نفسه مرحَّبًا به في عوالم الشباب الجديدة. وطبعا تكون الأصعب تلك السيجارة الأولى. تحدى تلك الصعوبة، وتعدى خطوتها. كانت سحب السيجارة عوالم معارك وآثار نقع خيولها الجامحة التي تتراقص في رحاب معركتها. كان جمرها تشكيلا لمختلف التصورات والتخيلات التي أجّجتها نفسية فؤاد وهو يشرب واحدة تلو الأخرى. وكأن السجائر لا تكفي حطبا لكي توقد نارا. وكأن النار لن تعرف خمودا ما دامت متأججة داخل صدره. وكأنه لم يكتفِ بهذه المعارك. يحتاج إلى أسلحة أقوى من أجل مواجهة كل مدٍّ هجوم داخلي. أما رائحة السيجارة فقد ألِفها منذ صغره، كان أبوه السي العباس الشاربي مدخنًا لها، رغم أنه تجوّل بين أنواع رديئة ورخيصة. ألِف فؤاد حضورها. يعتبرها من تراث بيئته ومكوناته مثلها مثل روائح النجارين والصباغين وغيرهم من أصحاب الحرف التقليدية.

سيكون النفاذ إلى رائحة أنسم. قد تدوّخ في البداية، لكنها مستميلة للذهن لكي يسافر داخلها و داخل سحبها. الكيف والحشيش والزمن الهشيش، لازمة رفاقه في سعيهم إلى تدخين هذه المشتقات. سفر خارج الزمن والواقع. مسافات كبيرة وبعيدة تفصل بين الهموم وهذه النشوة التي تحصر لك عالم السعادة فيما تتفاعل معه كموسيقى أو كلام مباشر. حيث لا يعمل الدماغ إلا على استحضار الآني والمتداول في خطاب اللحظة ومناقشاتها.

نسيان جميل جعل طيف أسماء حين مروره مهمَلاً حتى لو حاولت رفع بصرها لاختطاف نظرة في ملامحه، كان متفوقا في تجاهلها. كان له عالمه الخاص الذي يوقّع به سموّه وترفُّعه عن كل إهانة لكرامته بمخاطبتها أو تزجي عطفها. لكن جمرات المعارك داخل قضبان السجائر أو الحشيش التهمتْ أي تفكير خارجها، حوّلت التعويض إلى بريقها الأرجواني المتقد كشمس صغيرة ناطقة بنفسية فؤاد وشاكلته.

وتكبُر حاجيات هذا العالم المادية. فيما مضى، كانت الخمسون درهما كافية ليومين وزيادة. الآن، قد يشتري بها مخدراته وسجائرها، يؤدّي ثمن قهوة سوداء قاسية وساحقة لدواخله، وانتهى الأمر. ربما حلوتان بطعم الريحان أو (فليو) بعشرين سنتيما لإذهاب الرائحة من الفم وخلُصت الدراهم من الجيب.

بصمات الذاكرة ثقوب سوداء تطفو فوق سطح الاستحضار. فوق عالم سحبه المتخيّلة والمعيشة يستحضر وهو البِكر، جلسات أبيه مع أصحابه. لون قنينات لم يعرف طبيعتها، وسحب دخان مختلفة المصادر. (لم أجتهد من عدم)، هذه سنة الخلق داخل مجتمعنا. أصبح فؤاد يرافع دفاعا عن عالمه الجديد. فكّر في مصادر تمويل جديدة. أخذ ينسخ أقراصا مدمجة للأغاني والأفلام في منزله وعلى حاسوبه، ويبيعها بالجملة أو التقسيط بحسب وضع البيع والجلسة. صديقه الجديد خياط تقليدي. شاب من مدينة مجاورة استطاع أن يكتري هذا الدكان وقسّمه إلى زاوية للمبيت مفصولة بستار سميك عن مربع صغير خصّصه للخياطة واستقبال الزبائن من الرجال والنساء. أصبح لفؤاد بجانب عبدالجليل

طاولة صغيرة يجعل فوقها أقراصه ومبيعاته. حتى علبة سجائره جلبت له الراغبين في سيجارة بالتقسيط، فجعل جمة خفية لبيع السجائر بالتقسيط. يتجنّب رؤية سكان الحي وأهله له. وقد تحدى حواجز نفسية كبيرة قبل إقدامه على شرعنة تجارته الجديدة خصوصا مع السجائر. لكن، لكل اقتصاد ثقافته، ولكل ثقافة اقتصادها. قد يجد لمثل هذه اللازمة ما يشبهها تعبيرا. وتكبر الأحلام ومواصفات أماني العيش والتحقيق كملذات. قد يراهما المارّة كحجر وليلي جالسين صباح مساء، لكنهما وغيرهما كذلك، مخلوقات فضائية سابحة أكثر من هؤلاء المارة. في بعض الأحيان يعتبرون سعادتهم لا تُضاهى بمال أو شروط عيش أخرى. فقط تلك المدينة الجديدة اللعينة والمشتهاة في آن.

ـ بغينا نخرجوا من هاذ الحيوط آ خاي عبدالجليل.

ـ فين نمشيوا آ سي فؤاد؟

ـ نفوجوا شويا في المدينة الجديدة.

ـ هي بغيتي تنغّم.

ـ بيني وبينك، المدينة الجديدة كلها توت وديكورات وزهو. ليس مثل هذه الحفرة مليئة بما انقرض من التاريخ.

ـ ها أنت، جمع فليسات. ويوم السبت نمشيوا لشي جلسة واعرة.

كان فصل الصيف نوعيا هذه السنة. تعرف فيه المدينة إقبالا كبيرا على ظلالها وعلى فضاءاتها المكيفة طبيعيا، والمحمية من درجات الحرارة الملتهبة التي تتقد بها جنبات أسوارها وساحاتها الخارجية. وكان طعم الصيف بأناسه الجدد كذلك، وبحركته السياحية التي تنتعش فيها الحياة الاقتصادية والترفيهية. إنما فصل صيف فؤاد وصديقه الخياط عبدالجليل كان بحضور ابن الحومة والزقاق، سمير البورقادي. شاب مهاجر، يزور بلده الأم، ويعشق مدينته في فصل الصيف أكثر. ينتمي سمير لجيل جديد يؤمن بالاستهلاك والتمتع بمعطيات الحياة. ما وجده متقاطعا مع الصديقين في تدخين الحشيش وأكبه بليالي السهر والتجوال والعلب الليلية. في سيارته الزرقاء المكشوفة، تكون رحلة كل يوم فيما بعد الغروب. وتيرة متأنية في برمجة اليوم وسهرة الليل. كرم فؤاد وعبدالجليل بالنهار يكافئه كرم سمير بالليل. مطاعم وحانات وعلب ورفيقات أنس وسمر وسهر. كل مرة أغنية جديدة.

وما تعوّد عليه المرء يصبح التخلي عنه صعبا. تعوّد فؤاد على نمط الاستهلاك الراقي، لباس صيفي أنيق من آخر موضة، علبة سجائر شقراء، وما خفي أعظم كان من مضمرات السهرات. وهذه الثقافة أموال تصرف، فكيف سيغطي متطلباته الجديدة؟

بدأت المشاكل مع الأم. جاهدت التستر على سلوكاته، لكنها سرعان ما فجّرت مصائبه أمام أبيه. لم يتوقع أخوه ولا أخته أن يتعامل بفظاظة مع أمه. أن يصرخ في وجهها ويهددها بالضرب و ينتزها كي تعطيه النقود التي يحتاجها... أصبح التنافس بين ذكرين كبيرين ورمزين داخل العائلة، الأب والابن البكر. يتابع الجميع هذا التحدي الغريب، ويحسمه فؤاد بضرورة الانفصال عن سكنى أسرته. سيكتري غرفة مع صديقه عبدالجليل وسيعدّد أفكار الحصول على أموال جديدة من أجل مصاريفه المتزايدة.

توّسط بين البازارات. سهّل تداول بضاعة الحشيش بين دروب المدينة ومدمنيها. تصاحب مع ذوات دخل رغم كِبر سنهن أو سمعتهن. كان غرضه مقضيا والإغداق عليه ميسورا. قد يفاجئ أخاه أو أخته بهدية مرسولة، وقد ينبهران لنجاحه في التحدي لكبير العائلة، لكنهما يجهلان دروب هذا النجاح. فقط قلب الأم هو الذي كان يخفق كل مرة ويحدس المخاوف والمخاطر. ترى في خطابه بالملايين في صفقات تجارة ينسبها لنفسه خلَلاً في المعادلة. ما كان الغنى في ظروف إدمان وخروج عن العائلة وسكن ضيق فوق السطوح...

يوم عيّرته بالحسين ابن الحي الناجح في حياته والذي استطاع اقتناء شقة فاخرة بالمدينة الجديدة وسيارة جميلة، وفاز بالجميلة أسماء زوجة له، هاته التي اشتغلت هي الأخرى بعد تخرجها من سنتي تكوين بالمدرسة العليا للتكنولوجيا، في تجمع بنكي جديد، كان زرّ تفجير الجرح والقنبلة النائمة في سكون ذهن فؤاد الراكد في سديم الحشيش وتركيباته. احتاج إلى ذروة

الانتشاء والثمالة والتبختر والإسعاد. لكنها كانت دراما، في كواليسها تُحضّر الجرائم والانحرافات الجديدة للمدينة. نادى جليسته في العلبة الليلية:

أسماء!

ـ أنا نعمة ولست بأسماء.

ـ أسماء!

ـ هاذي أمّك اﻟﺤﻤﺎر!

لم تتمم الجملة حتى كانت مستقبلة مع آخر حرف فيها صفعة على استدارة وجهها، وقنينة تكسّرت على رأسها فهشّمته لتسافر في اللاوعي وفي بركة دماء قانية.

كان المشهد كافيا لكي يجعل العلبة الليلية تفرغ في خمس دقائق، ولكي يحل عناصر الأمن بدل الزبائن والزبونات. كبلوه واعتقلوه، ونقلت سيارة الإسعاف على استعجال نعمة إلى طوارئ الليل بمستشفى محمد الخامس، بينما كانت بداية عهد جديد لفؤاد الذي خانه اسم الأنثى، مرة في تركه ينتظر فوق قنطرة، وأخرى في تعيير الأم له بها وبالفائز بقلبها، وهذه التي لم ترضَ بجهل اسمها. وهو الذي كان قد وفّر الخمسين درهما حين رغب في مواعدتها أول مرة. لكن أحلامها كانت عاصفة على وجوده الرملي الذي بنى فوقه قصوره الهاوية.

السجن!

جحيم أم نعيم؟ لا يمتلك الجواب على سؤاله. أغلق ذهنه دون كل الأحكام أو القيم التي يمكنها أن توخزه في الأعماق. كفاه هذا الوخز الحاضر في شبابه وحاضره، هذا الضغط الذي سيعلّمه الأرق والسهاد وجحوظ العينين في اللامرئي بصرا أو بصيرة.

ستكون هناك حياة جديدة في السجن. سيرافقها تعاطف الأسرة بكبيرها وصغيرها. أهل الحي بمن فيهم الحسين وأسماء، منهم من تكلّف بالمحامي، ومنهم من توسّط لأجهزة نافذة في السلطة والقضاء والأمن، من أجل استجداء أو عفو. لم تكن نعمة لترضَى بمسامحة وعفو مجاني. حمدت الله على أن وجهها لم ترسم عليه خارطة جرح غائر يقضي على صورة أنوثتها ومظهرها الخارجي. تلك الغرز الطبية التي خيطت بها الجهة اليمنى أعلى الرأس، بدأت تتضمّد وتختفي مع البرء فانبلجت منها شعيرات الرحمة التي وجدت مسامّا للنمو كحقل ربيع استرجع اخضراره. كان بكاؤها الحارق خوفا من فقدان معالم نعمة وجمالها الذي يرسم حروفا تجذب الرجال لجلستها. لم تحرم هي الأخرى من معارف ووسطاء يحمونها في وضعيتها. رعب التهديدات أكبر، لذلك كان سلاحها طيلة مشوار عملها ونشاطها في العلب الليلية كما في الحانات والمقاهي الفاخرة هو كسب هذه الأسماء الوازنة. والحرقة أكبر حينما ستجد جلّ هذه المعارف لا تعترف بها إلا كنعمة الحسناء الراقصة والمسلية والممتعة جسدا وسمرا وأشياء أخرى (ذاك الشي)، كما ألِفوا أن يمازحوها في رغباتهم المقضية. لكنها رغبات مؤدّى عنها في نهاية المطاف. لذلك اعتذر لها صديق خمريات عن كل مساعدة باستثناء تقديم أكل طري و لباس تستبدل به القديم وباقة ورد مجهولة المصدر وُضعت أمام سرير استشفائها.

حرقةٌ ترجمتها زيارة صديقتها وابنة بلدتها لها في المستشفى كما في السجن. اكتمل الوعي بضعف القضية وبوضعية الاحتقار التي ينظر بها المجتمع للساقطات في الغالب:

ـ حينما يستجديك في عز الليل لكي تتركي صديقك أو همزتك وترافقينه. حينما يبكي، كطفل فوق فخذيك، هذا المسؤول المحترم أو ذاك صاحب النفوذ، مشتكيا من عقد زوجته أو عدم سعادته، فاضحا أسرار خيبته في الفراش مع حليلته وزوجته... كل هذا لم يرؤه فيك كإنسانة؟ أبقى ساقطة وباغية وقحبة منعوتة بالشتائم في نظرهم؟ ألا لعنة الله على الجميع.

تبكي، وتبكي صديقتها فاطمة وبمختصر الاسم فاتي. تريد من خلال شكواها وبوحها المتفجر أن تخفف الوطء على زميلتها نعمة. تستبين دونية المرأة داخل المجتمع. شقاوة العيش ووهم السعادة في فضاءات الاستغلال. جسدٌ للبيع، وأدوار للإثارة والاستقطاب.

ـ نحن مثل آلة الفليبر التي تذر الأرباح لصاحبها. إذا تعطّلت يستبدلها بأخرى. لعنة الله على الجميع. أولاد الكلاب، كل مرة يدونون محضرا في مخفر الشرطة، نكون تحت مقصلته التي تهدد أعناقنا بالقطع وأطرافنا بالبتر. يأتون اليوم ويهددونك بإحياء المحاضر ضدك. يا ويلتي على بلد حقير. لو كنا قد استطعنا مغادرته قبل أن يقع كل هذا، نذهب إلى إيطاليا أو تركيا أو حتى إسرائيل. لمَ لا. عبير تعيش مرتاحة هناك وتأتي كل سنة بنقود غزيرة.

تتابع نعمة صوت صديقتها في ألم وحسرة وصمت. تعرف طبيعتها في الكلام المتتابع وغير المنقطع. لكنها تتأسّف لكون فاتي على حق منفلت من قبضتها. ولا تجد حلاً آخر سوى تسوية ومقايضة لحل المشكل. القانون واللوبيات أقسى عليها وعلى روحها، حتى هذا الجسد لا يهمها. ليته احترق في انفجار قنينة غاز تأتي على الجميع داخل العلبة الليلية للفندق. هكذا تمنت الموت، لكنه موت عادل في سحق الجميع، بمن فيهم كل الأسماء التي تدخل في تمثيل سيناريو التوريط وسيناريو الإنقاذ للذي هشّم رأسها سكرا وانتقاما من امرأة لا تعرفها أبدا سوى كونها قد اجترح بحرقتها هذا المسمى قيد سمرٍ: فؤاد.

لم يكن من مصلحة الفندق ولا الملهى التورط في جلسات محاكمة. اعتبر الجل ولوجها داخل دائرة الممنوع وإن كان رهان عملهم لعب بالنار التي تلهبهم داخل دائرتها. كان منطق صاحب الفندق واضحا وهو يتكلم مع المحامي ومع مدير الفندق:

ـ علينا أن نتستر على القضية ونجعل لها حلاً يرضي الجميع. ما تزال مسافة النجاة من المسؤولية الجنائية أو القانونية قائمة. حلٌ يرضي الجميع، نعم.

مع بعض الملايين، غادرت نعمة إلى مدينة طنجة. طُوي الملف وحُصِر في تهمة السكر العلني وإثارة الفوضى في الشارع العام. أمام مؤسسة سياحية وليس داخلها. تلك أخف الأحكام وأرحمها. لكنها كانت مدّة تضاهيها سرمدية الزمن في وعي فؤاد. يعيش ثوانيها بين تعرق وارتعاد وأرق ورغبة في غيبوبة موت لم

يسعفه ملك الموت فيها. وكان للبصر أن يفتح العقل على فضاء السجن و نزلائه، مُرَحّبا بالشاب اللطيف والجديد: فؤاد.

يتعجب فؤاد من مواقف أمه خلال كل مراحل هذه المحنة. صمتت خلال بداية لقائه. سمعتْ ما جرى. راقبت بعينيها الجاحظتين كل من زاروه. تقبّلت مؤازرتهم بحزن أثلج خدّيْها. الكل يرتاب لهذه الأم الصامتة كجبل، والكل يعلم أنه بركان وقد ينفجر.

في البدء، زارتْ الفتاة نعمة في المستشفى. اطمأنّت على حالها. أرادت أن تخدمَها لكن الممرضات أبيْن إلا إعفاءها، خصوصا وأن رجل أمن على الأقل يداوم على حراستها. طلبت منها ومن صديقتها زيارة أمها وإخبارها لكي تأتي، ترجّتْها صديقتُها بإيعاز من نعمة ألا تقوم بهذه الخطوة. لم ترد نعمة أن يعمّ الخبر بلدتها ولا أهلها. كانت الزهور كافية، وكان الحديث مع صديقة نعمة رسالة فتحت دروب الوجدان. استشعرت نعمة قلب الأم وعلمت حرقتها. كان سماعها لقصة فؤاد وهو يكبُر، وهو يتعلّق بأمل وردة في حياته، وهو يتأنق للحياة، ابتسامة لم يلحظها الحاضرون بجانبها، كما لم تفتح لها عينيها وهي ترسمها. تخيّلته أخا لها، أو حبيبا ناجحا في كسب قلبها.

ـ يا ابنتي، فؤاد ربّيْتُه على احترام كل امرأة وفتاة. اعتنى برياضته وكمال جسمه. لم يسعفه الحظ في الاستمرار في التعليم. لا نمتلك الإمكانيات لكي نعلّم أولادنا في مدارس خصوصية. أنا أم جالسة في المنزل، صنعتي لا تكفي سوى لشراء ثوب جديد أو هدية صغيرة لأحد أولادي أو لتسديد دين يحرجني كلما تذكرت

تأخري عن أدائه. فؤاد، ضاع يوم فكّر في تلك الملعونة بنت الحي والحومة. تعلّق بها قلبه لأناقتها، وأناقته من تلك الأناقة. باعدتْ طريقها عنه لكي تعانق آخر من نفس الحي. وتعلمين النار التي يتركها العشق المغدور. من يومها ضاع ابني. انقلبت حياته تدخينا وأشياء أخرى لم أدرك خطورتها إلا الآن. أنا لا ألوم نعمة، ولا أطلب مسامحتها. أريد الاطمئنان على سلامتها ومعافاتها. هي مثل ابنتي مثل كل بنات الناس. لا واحدة منهن تريد هذا الجحيم.

تذرف فاتي الدموع وهي تسمع لقلب الأم وهو يبوح. كل الأمهات مقدسات. هكذا حدس قلبها. نظرت جهة الممدودة على سرير العلاج، وبقدر شفقتها على صديقتها بقدر قوس الاحتمال في إمكانية المسامحة والتنازل عن كل متابعة. وكأنها بدأت في مرافعة القضية والحلول المطروحة معها. لذلك، وحينما استيقظت نعمة من غيبوبتها، ذكّرتْها فاتي بشروط العيش داخل هذه المدينة، بتحكم لوبي المرافق التي ترتدنها. كيف ستتم محاصرتها ورفض ولوجها لها. كيف سيتم تحريض بعض المنحرفين للاعتداء عليها. والأخطر، أن ظروف الحياة الكريمة ستتغير. ربما تصبح من عارضات الأجساد على ممرات الرصيف، وأي رصيف هو إذا كان لمنتصف الليل وللشواذ والمكبوتين؟

تسمع نعمة كل هذا وتعي واقعيته. تختبر احتقانها. تدرك حرقة الحب إذا امتلكت صاحبها شعلة. ربما إذا كانت بنتا عادية ما كانت لتعلل ما قام به فؤاد. تتذكر وهي تحادث فاتي يوم رشقت بكأس منافسة لها حول زبون بفندق من خمسة نجوم. العنف منطق الحكاية والجلسة والخمر. يتأنّث كل سمر في حياتها

على معادلة المتعة والنقمة. السيف واللقمة. وكيف للقلب أن يندمل من الجراح. لم يكن فؤاد إلا تلك القرحة التي فجّرت براثين هذا الجسد المعروض للبيع والحارق لثوب الكرامة الحريري، غير المعترف بها في سوق النخاسة والدعارة.

حين انهمر نهر الدموع، صرخت: أنا قحبة. وهذا قدر القحاب في مجتمع القحاب. هذا قدري. سأعيشه وأقاوم. سأذهب لطنجة، ومنها إلى إسبانيا أو إيطاليا أو تركيا. تفو على عيشة.

وما كان لفؤاد إلا أن ينتظر قدر الحكاية و تطوراتها. ما كان يتوقّع أن تقف أمه في زاوية الحي صارخة في وجه أسماء:

ـ تقتلين الحي وتذهبين في جنازته. أنت سبب ما وصل إليه. حرقت قلبه ومزقت كرامته. أنا أمه وأعلم بقلبه الملائكي. لم يكن يوما ليدخن أو يشرب. استلذذت بتعذيبه. سحقا لك من مريضة.

اندهشت أسماء وتفاجأت لما رمت به الأم شخصَها من سباب واتهام. لم يجرؤ أحد على اتهام الأم أو تعنيفها أو الرد عليها، ولا حتى أسماء أو أهلها. الكل يعلم محنتها. والكل يدرك أن جزءا من الحكاية الدرامية يشكل اسم أسماء دورا وسببا في وقوعها، إنما كيف ذلك؟ كل واحد نسج القصة بطريقته وإخراجه الذي يناسب جلسة روايته وحكيه.

وفؤاد في كل هذا، داخل السجن في انتظار رحمة تخفف عن روحه هذه الوجمة. يرفع عينيه إلى السماء حيث الرجاء في خالق هذا الكون والقادر إعجازا على كل شيء.

يراجع في منامه ما وقع من أحداث. يحاول إعادة الإخراج لمشاهدها. يرد على نعمة بالاعتذار في مناداتها بغير اسمها، تقبّله وتذرع كتفيه في انتشاء. يباغته تعيير أمه:

ـ لو كنت مثل أسيادك، خدموا وتزوجوا بنات الناس والعرَض.

ـ لا يا أمي. جملة تنطقها دموعه الحارة التي تنذرف في ظلمة الزنزانة كجمرات حارقة، يشعر معها كأنها خيوط الموت التي تبدأ في تشريح الجسد وتمليحه. يضطجع دافنا رأسه في وسادة وجدار بارد وأصمّ. تُسَعّره نحنحات أجساد نائمة كأنها فحيح أفاعٍ قد تتسلّل للدغه. يفتح عينيه على جرح اليقظة، منتظرا تسلل ضوء الفجر وما يعِد به من جديد.

ـ لولا الغد الآتي لكنا انتحرنا جميعنا هنا يا فؤاد.

هكذا يخاطبه بفلسفة مثيرة، عبدالعاطي، المحتجز معه في الزنزانة في قضية تهجم على رجال السلطة في سوق شعبي لبيع الخضر والفواكه. شخص مربوع وقوي البنية. لحية ليست بالكثة لكنها تعمّر جنبات خدّيه وذقنه ويعفو عنها ليقص شاربيه دونها. وصف استأنسه فؤاد في ثقافته المجتمعية والدينية المغربية. حتى الحديث الشريف ما يزال حاضرا في ذهنه.

ـ احمدِ الله على عقوبتك القصيرة لبضعة أشهر. أنا سأبقى بعدك لمدة سنة ونصف. لكنني أحمد الله على قضائه وقدره. أينما ولّيت وجهي ثمة وجه الله ورحمته، ثمة هداية لي ولأحبابي في الله. وأنت يا فؤاد، أصبحت أخًا لي. لستَ من المجرمين ولا من رجال العصابات. أنت ولد الناس، مربي، ولد عائلة. تقي حتى في كلامك وألفاظك. لا تستحق هذا المكان، ولا حتى من تسبّبوا لك في ولوجه. سأوصي بك خيرا إن شاء الله تعالى.

ما تعلّمه فؤاد داخل زنزانته، هو ذلك الهدوء والصمت الداخلي الذي يفرضه الزمن على صاحبه بتوقيت ساعاته. تصبح المسافة مع الذات أكثر واقعية. ينظر حوله، مجموعة من الأفراد تناقضت ظروف إقحامهم في مغامرة السقوط والاعتقال داخل السجن. تختبر الأعين بعضها البعض. تقاس درجات الحركة والكلام. تأتي بعض النظرات لتمسح هيأة فؤاد وكمال بنيته رغم كونه قد أدمن لمدة المخدرات والسجائر والجلسات الخمرية...

يعود لصمته الذي يحافظ به على هويته الداخلية. يكلم نفسه: ما أعظم هذا الصمت الذي تشعر به وأنت وحدك.

يحاول أن يلجأ إليه حتى تبتعد عنه كل الأصوات المزعجة التي تصرخ في طبل أذنه الداخلي، والتي قد تؤرقه وتزيد من حدة ضغطه فلا ينام. استطاعت الأشباح أن تسكنه لمدة، لكنه استطاع أن يهجرها فلم تجد رجاء في البقاء داخل عالمه الحسي والذهني. لا يدري من تخلّص من الآخر، هو أو هي؟ الأساسي هو جلمدته الصلبة الجديدة التي أصبح يشعر بها. لا يجذبه شيء

خارجي سوى صوت عبدالعاطي الذي لا يفصل كلمته عن ابتسامته. العوالم الفكرية والوعظية، وذلك الزخم من النصوص القرآنية و النبوية الذي يؤثث كل فعل وكل حركة، كل ذلك طمأن فؤاد أكثر في اختياره القيام بالصلوات الخمس يوميا. تدرّج بعدها في القيام بالنوافل. ناوله عبدالعاطي المصحف، أصبح رفيقا له في الصباح وفي المساء. في ليلته الأولى التي قرر فيها القيام للصلاة، كان عبدالعاطي بجانبه يصلّي بسورة الضحى. استوقفته آية (ما ودّعك ربك وما قلى). ترجّى شفاعتها وإنقاذ خالقه له من هذه المحنة. قام وتوضّأ من نفس الدلو الصغير البلاستيكي الذي يستعمله عبدالعاطي. صلى ركعتين. جلس على ركبتيه مستغفرا و خاشعا. لا يستبين من يفتح رمش عينيه في ظلمة الزنزانة سوى ظلّين في حركات جلوس و قيام. بعضهم أجّل استفسار من الْتَحق بعبدالعاطي إلى الصباح. والبعض استوى في جلسته محملقا في هذا الملتحق ب(بولحية) كما يسميه بعضهم. بعد وجبة الفطور، ناوله عبدالعاطي كتيّبا يفسّر سورة العصر لسيد متولي شعراوي. وبدأت الرحلة الروحية بإكسيرها الذي يشفي أمراضها، صلاة وأدعية وقراءة قرآن وآياته المنجيّة.

بعد شهر ونصف، أصبح الجمع لا يميز بين فؤاد وعبدالعاطي في التصنيف والرؤية. العائلة هي الأخرى، اعتبرت الابتلاء منفرجا فتح ظلال الهدى والعبادة لابنها البكر. كانت مهمة عبدالعاطي خلال الشهر الأخير لفؤاد في السجن أن يعلّمه التسامح. كيف يتسامح مع أمه، وكيف يسامح أسماء.

ـ الله سبحانه وتعالى يبتلينا بالمقربين لنا. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم. ربما هذا الكتيب الصغير سيفي بالغرض. اقرأه وعاوِدْ قراءته. ستجد فيه بلسما إن شاء الله العلي القدير. وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

كان آخر ما أهداه السيد عبدالعاطي لفؤاد قبل خروجه من السجن، وقبل أن يجعل له صلة مع السيد عبدالجواد، بائع الذهب ذائع الصيت بقيسارية وادي الذهب بالمدينة القديمة.

قصير القامة، عريض الكتفين، ما يدل على بدانته طبعا. أنيق المحيا لدرجة نضارة وجهه وبريق شعره الأسود وعينيه اللامعتين ابتسامةً وتفاؤلاً. يجيد في جلستِه التواصلَ المتفاعل، بين الاستمرار في مكالمة هاتفية وتنبيه شريكه في محل البيع ومخاطبة أحد الزبائن بما يناسب الإقناع، كانت هذه ملاحظات فؤاد وهو يقف أمام باب دكان الفتح بقيسارية وادي الذهب الخاصة ببيع الذهب.

تغيرت شخصية فؤاد فتحول معها إلى كتوم صامت، لكنه جامد النظرات واثق الخطى. لم يعد ذاك الباحث عن يوميّ الغرائز أو مشبعات الإدمان. هل أقلع عن التدخين وعن الإدمان؟ لم يفكر هو في هذا السؤال. ربما فكر فيه محيطُه. لكن محيطَه لم يكن ليجرأ على التدخل في خصوصياته. شخصية السجين أصبحت أكثر عمقا وأكثر حرية في خصوصياتها هاته. نظرة أخيه عماد وأخته سارة، أصبحت أكثر مهابة واحتراما. ربما هو بطلٌ اخترق عوالم المحظورات والممنوعات وجدرانها، واستطاع الخروج منها بمعجزة خيالية أكثر انتصارا، يجهلانها معا، سارة وعماد. هكذا قد يتخيّله أخوه. أما سارة، فما تعلّمته من أمها، وما لاحظته من بنائها الجديد لحبّ ولقيمة وفضائل ومحاسن ابنها البكر فؤاد، أصبحت ترى معه أخاها فؤاد نموذجا للرجل الشهم والمتحدي والقادر على كل شيء بشجاعته.

أما ما كان من أبيه ـ هذا المنافس في السلالة والشجرة وفي الذكورة ورعونتها ـ فقد استسلم لقدر الأحداث، وترك لمُيَسَّرِها أن يحدث ويقع: (لها مدبر حكيم)، هكذا يعبّر ويختم كلامه في الموضوع فيترك لأم فؤاد أن ترتب وتنجز كلما تعلّق به. هكذا أصبح لفؤاد عيش من جديد بين أحضان أسرته. خدمات مادية ومنزلية، مسافات تشاور واحترام. كل هذا كان فؤاد يراقبُه ويحلّله ولا يدري كيف يفسّره بالمناسب له. يشعر بغرابة الحياة الجديدة. داخليا، هناك حالة استنفار من كل احتمالات إزعاج أو إقحام. هناك أحلام، بل كوابيس توقظه في جوف الليل، تقض مضجعه، تعرّقه في بدنه. تخترقه كل الاحتمالات التي لم تقع، أما التي وقعت فلها أثرها اليومي الجديد.

مرّ أسبوعان على خروجه من السجن، حينما قرر الذهاب إلى السيد عبدالجواد، بعد أن ألحّ عليه السيد عبدالعاطي في مكالمة هاتفية أن يقدم على الخطوة والعمل بالتوصية. لا تفصله عن القيسارية إلا مسافة العشر دقائق، وكأنه لم يكن بجوارها طول حياته. لم تكن في دائرة اهتماماته وانشغالاته في يوم من الأيام.

يلاحظ الحركية المرتبطة بها وبأضواء مصابيحها القوية، وزبائنها المتنوعين، وسوقها السوداء التي تنتشر خلف دروبها والتي تصل ملفاتُها إلى فضاء السجون، ومنه السجن الذي كان ضيفا عليه خلال المدة السابقة. يستغرب للعلاقة التي تجمع السيد عبدالعاطي بالسيد عبدالجواد. هذا بائع ذهب وفضة،

وذاك بائع خضر وتاجر بالتقسيط في مواد متنوعة أخرى. كيف له أن يكون دخيل السجن دون قضية ذهب تجعل له علاقة بالسيد عبدالجواد؟

على العموم، كل هذه الأمور لم تكن لتشكل عالمه. ها هو الآن يقف أمام دكان أكبر تجار القيسارية السيد عبدالجواد. هيأته برهان نعمته. خاتم ثمين يطبع بنصر يده اليمنى، وآخر رقيق يوقّع لوضعيته الأسرية كزوج وربّ أسرة. ملابس فاخرة وحذاء موضة رفيعة رجّح فؤاد أنها من أفخر متاجر الأحذية بالمغرب.

ما يعرفه عن السيد عبدالجواد، سيارته الرفيعة رباعية الدفع ذات التكنولوجيا المتطورة والعالية، وثمنها الذي يصل إلى مرويات سبعين أو ثمانين مليون سنتيم. هكذا هو عالم الأغنياء، تقديرات وتخمينات في ذهن فؤاد. لم يعش منه إلا استهلاك المدينة الجديدة في علبها الليلية ومطاعمها الفاخرة الخاصة في فنادقها وليالي أنسها. وكان كل ذلك حلما كاذبا. انقشع، كأنه لم يكن أبدا.

ـ أنا من طرف السيد عبدالعاطي.

ـ أهلا، أهلا سيدي العزيز. لقد كلّمني عنك كثيرا. انتظرتك منذ مدة أسبوع تقريبا. والله العظيم أنا سعيد لأنك جئتني اليوم. أقدامك سعد على عتبة محلنا. تفضّلْ، تفضّلْ.

كان الترحاب والعناق بباب الدكان، وكانت الدعوة للجلوس بدكان آخر يستعمل في الغالب لورشات صياغة للذهب والفضة. تناولا كأسي شاي

وتبادلا الحديث العام حول الصحة والعائلة والاشتياق للسيد عبدالعاطي. همس السيد عبدالجواد وكأنه يبوح بسرّ أو حقيقة كبرى:

ـ السيد عبدالعاطي، لا مثيل له في البلاد. شجاعة وعبادة وأخلاق والتزام. مال الدنيا لا يضاهيه وزنا.

يسمع فؤاد ويبتسم أكثر مما يتكلم. يجيب على بعض أسئلة السيد عبدالجواد. يتعرّف على عائلته واسمه الأسري وأبيه الذي يلتقي معه بعض المرات بين دروب المدينة أو مساجدها. لم يجد مبررا لرفض الدعوة لوجبة العشاء.

ـ إن شاء الله، بعد صلاة العشاء بالمسجد الأعظم نلتقي أمام بابه الخلفي المجاور لباب خزانة الجامع الكبير.

التحق السيد عبدالجواد و ضيفه بجماعة جديدة على هذا الأخير. كان الجو دافئا بالليل، استعان بنسيم الوادي الذي يبعث رطوبة مُحملة برسائل الأشجار والشعاب. فبعد أن رسمت عجلات السيارة طريقها بين شوارع المدينة، انعرجت جهة حي (بّليزانس) المطل على وادي ويسلان. وما دامت التسمية بالفرنسية، فقد احتفظ هذا الحي الراقي عليها ليُترك الاسم العربي للجهة المقابلة خلفه حيث يفصلها ممر السكك الحديدية والشارع المزدوج المؤدي إلى مدينة فاس. هكذا تميز ساكنة المدينة بين بّليزانس و البساتين. تسمية على مسمى كان قائمًا فعليا وبقيت منه خصائص مقاومة بيئية وطبيعية في مواجهة حركة إسمنتية وترفيتية أتت على مروج وبساتين حقيقية رائعة كانت جنة ومفخرة للمدينة فعلا.

كان المنظر ساحرا ليلا كذلك مع رؤية هذه التلال والربوات متلألئة بمصابيح الإنارة العمومية وببصمات النوافذ المستيقظة لسهر هذا المساء من يوم خميس من أواخر شهر ماي. لم تُسمع أصوات خارجية خلال مسافة الطريق إلا ما كان من صوت القناة الإذاعية السادسة التي شغّلها السيد عبدالجواد. بدت السيارة كعلبة صوتية مغلقة، وكمجرة لرؤية بانورامية مفتوحة على زواياها المتعددة. يتخلل الرحلة الإذاعية صوت السيد عبد الجواد كل مرة بحديث مؤنس ومستأنس بالشاب فؤاد. بدا على هذا الأخير الحرج والارتياب والخجل، فارتأى السيد عبد الجواد أن يجعل حواره معه مسترسلا ومداعبا في ما لطُف من الكلام.

ـ إن شاء الله تعالى، ستجدهم أناسا طيبين ومباركين ولطفاء.. ستستأنس بهم وبالحديث معهم وبرفقتهم كذلك. النبي العدنان أوصانا على التحابّ في الله تعالى وجعلَنا إخوة في الدين لهذا الغرض. لا تجعل نفسك غريبا عنهم. ولا يهرك المكان ونعمه، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له.

بين مدخل الفيلا وموقف السيارات بداخلها كانت المسافة مائة متر تقريبا. ثلاث سيارات راسية، ومن مسافة قريبة بدت لهما جلسة في الهواء الطلق تحت أضواء بيضاء يحرسها البدر في طلعته المستوية فوق الجماعة. الكراسي خشبية لكنها مريحة بأغلفتها الناعمة بالقطن وثوب رطب أزرق اللون. كان في استقبالهم الرسمي رجل ستيني في لحيته ولباسه الأبيض. خفيف الحركة ومتماسكها رغم شيبه ورغم مناداة الكل له بالشيخ ـ شيخنا الأبرك ـ. رحب بالضيفين في عناق ودي وربت مستمر وابتسامة رفيعة لم يجد فؤاد بدًّا من الانشراح والابتسام ومبادلتها بالكلام المناسب والطليق خلال حواريته مع الشيخ وضيوفه. منذ مدة لم يشعر بهذه القوة الدافعة للكلام بكل ما أوتي من لباقة وديبلوماسية كلام وحوار. كأنه ابتكر لغة جديدة، لم تعد نفسه مكبّلة للسانه ولا لأفكاره. المحيا والتحية والابتسام والكلام، كلها عناصر تغيرت فجأة في طبع فؤاد وبالمثل لاحظ حضورها عند الجماعة كذلك.

كان الشيخ هو الشخص الوحيد الذي يرتدي لباسا تقليديا بجبدور وسروال، مطرّزين بخيوط حرير مذهّب وناصع. تقدّم للسلام والتحية على السيد فؤاد، الحاج اسعيد، متوسط القامة ونحيف، يبدو عليه تمسكه بربطة العنق وبدلة

موحدة الألوان رغم حرارة أواخر شهر ماي. صوت رقيق ومبحوح وعينان صغيرتان في حركة سريعة ولافتة للنظر.

الشخص الثالث، كانت لغته العربية فصيحة ودقيقة في اختيار كلماتها. ابتسامته كما نظرته حذرة. يزيد على فؤاد بخمسة سنتيمترات طولا عن قامته، ما دامت عينا فؤاد قد حذقتا في أعلى رأسه وفي استحضار سريع لمترِه وتسعة وسبعين سنتيميترا من قامته. ازدوجت الابتسامة حين تمة السلام عليه. قد تبدو زائدة في قياسها وحَدّها المطلوب، إنما من سيختبر فؤاد ويحلّله لحظتها لكي يعلم كنه تفكيره.

كان الشخص الثالث أنيقا في كل شيء، في حذائه اللامع وشعره ولباسه وسبحته التي لا تفارق ضمّ يديه إلا لسلام أو تلويحة إشارة. الحاج كمال. هكذا قدّمه *الشيخ حميد* لهما. ضيف وأخ عزيز وكريم من بلاد تركيا.

ـ تركيا إن شاء الله هي مصباحنا اليوم آ الحاج كمال. ومثلما كانت عزة للمسلمين أيام الإمبراطورية ستعود لتحارب ضعفنا وخيانتنا وشتاتنا إن شاء الله رب العالمين.

رددت الجماعة اللازمة في شكل شبه موحد وفي لحظة واحدة. كان الاستثناء في صوت فؤاد الذي تأخر وتذبذب في نطقها فجاء حرف جرّه الأخير هو الأخير في كلمة العالمين.

ـ كلنا إخوة والحمد لله، عرب وتُرك وأرمين وأفغان وغيرهم من خلق الله. كلنا إخوة في الله تعالى رب العالمين.

يتوجه الحاج كمال للحديث مع الشاب فؤاد:

ـ مرحبا سيد فؤاد. يبدو أنك عزيز على السيد عبدالجواد لكي يصطحبك ضيفا عزيزا ومكرما عندنا ومعنا. اعتبرني أخوك الجديد. نادني كمال، بدون حاج. ومرحبا بك عندي في المغرب كما في تركيا، في بلدتي أنطاكيا، ستعجبك كثيرا.

تبتسم الأطراف وتتبادل الريت على الأكتاف. يتنوع الحديث ويطول. كانت وجبة العشاء حساء ساخنا في صحون بيضاء وقضبان شواء محضرة لتوها من موقدها في زاوية من الحديقة. كان الشاي هو المفضل كمشروب عند الجميع، ورغم أن فؤاد قد خيّر بين أنواع مشروبات حتى تحضر له، فقد اكتفى بتناول الشاي مثل أفراد الجماعة.

حلا الحديث للحاج كمال عن مدينته أنطاكية. اعتبرها ملتقى للتسامح العالمي. استحضر تاريخها المجيد والممتد في القدم قبل ولادة المسيح عليه السلام. أشاد بتنوع أهل الكتاب وأتباع الديانات السماوية فيها. الكنائس والمعابد والمساجد. تمثيلها لقلب الأمة الإسلامية، ما دام الدم العربي قد امتزج مع التركي والكردي هناك. ونهر العاصي الذي يعبر ضفتها اليمنى والذي يحمل نسائم الشام، سوريا ولبنان.

ـ لا تستغرب سيد فؤاد، فأنطاكيا تتكلم جميع اللغات في آن. أنا مثلا مثل أسرتي أتكلم اللغة العربية رسميا، وتكون اللغة التركية هي الثانية عندي. أنطاكيا سورية في الأصل، لكن استفتاء أُريد لها سنة 1939 من طرف المستعمر الفرنسي جعلها تركية. لكي تعلم كم هي ممزقة قلوبنا اليوم مع ما يقع في سوريا. لن أحدثك عن الأمس. نحن الآن نشفق على حال إخواننا في سوريا. يقاومون نظاما مستبدا. نساعدهم بما أوتينا. لكننا لا ننسى أن نمدّ يد العون ورسالة السلام و الأخوة لإخواننا في العالم الإسلامي.

يسمع فؤاد حديث الحاج كمال ويجعله بجولة بصرية مفرقة بين جوانب الفيلا وبنايتها. بعض نسائها تظهرن في الشرفة أو خلال تقديم الصحون للوسيط في خدمة جلسة الرجال. يوقظه صوت الشيخ حميد من سهوه، الذي خانه في تتبع حديث الحاج كمال. جهله بجغرافيا المجال المتحدث عنه جعله يمزج بين تركيا التي يحلم بها سياحة وفرصة مرور إلى أوربا وبين تركيا التاريخ التي يتكلم عنها الحاج كمال. يحمد الله أن الشيخ حميد حوّل الاستماع إلى شيء جديد. فقد طلب من الحاج اسعيد أن يحدثهم في الدين ويفقههم فيه. وتلك فاتحة البركة و الدعاء بعد تناول وجبة العشاء.

هكذا تدرج الحاج اسعيد من أقسام العلم عند الإمام الغزالي إلى الغوص في علم المكاشفة والعلم اللدني و تفصيل أمثلته. استحضر قصة النبي موسى عليه السلام مع الخضر، ثم انتقل إلى رؤيا علي كرم الله وجهه وكيف فسّرها عمليا. كيف دخل إلى المسجد فدعاه عمر بن الخطاب إلى أكل تمرة واحدة من الطبق،

فكان أمره مطابقا لما رآه سيدنا علي كرم الله وجهه. تلاها بقصة عثمان بن عفان حين دخل عليه رجلٌ وهو في جماعة، فاتهمه عثمان رضي الله عنه بأنه زنى. كيف اعترف ذلك الرجل بكونه نظر إلى امرأة فاشتهاها... ربط الحاج اسعيد كل هذا بالتأويل اللدني الذي يجعله الله تعالى لمن يشاء من عباده، وأوّلهم فيه سيدنا الحبيب المصطفى أفضل الصلاة وأزكى السلام على سيرته الطاهرة. علم من الغيب لا يتم تحصيله بتعلم. نافع في العمل ومخلّص في المستقبل. فهل لنا أن نستفيد منه؟ يتصاعد التشويق وتتلألأ الأبصار متعلقة بهذا المنى. تأخذ فؤاد دهشة كبيرة وهو يسافر في رحلة روحية مع هذا الحديث و هذه القصص.

ـ ختاما إخوتي الأفاضل، وخير ما أختم به حديثي هو بما جاء في الحديث القدسي الذي قال فيه الله تعالى فيما يرويه الرسول الكريم عنه.

ـ ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه. أنظروا يا إخوتي: النوافل طريق لحب الله تعالى لنا ورعايته لحواسنا وسلوكنا وحياتنا. وعلم المكاشفة يكون بنيل حب الله تعالى.

يتدخل الحاج كمال بطلب إشارة وابتسامتُه موزّعة على العيون البارقة مع المصابيح المنعكسة عليها:

ـ إذا سمحت لي الحاج اسعيد، عندي رأي في هذا الحديث، نجعله في حزبنا هناك قاعدة إسلامية ناجحة.

ـ تفضّل الحاج كمال. والله العظيم أنتم مصباح الأمة الإسلامية قديما وحديثا. تفضّل.

يكسّر صوت مفاجئ وغريب على فؤاد هدوء الجلسة وحوارها. كان زقاء طاووس يبدو أن أنثاه قد ابتعدت مسافة عنه ليلا. بدا مزركشا لريشه في حلة بهية بالألوان، امتزجت بدرج مدخل الفيلا مع فسيفسائه، فكان الأزرق والأخضر والأحمر والأبيض، ما استطاعت عينا فؤاد تمييزه في اللوحة.

ـ مزعج ومؤنس هذا الطاووس. علّق الشيخ حميد قبل أن يطلب من الحاج كمال متابعة الحديث: يسرنا تلقي العلم من معدن نقي تشرفوننا به حاج كمال.

ـ العفو الشيخ حميد، أنتم القطب وأنا مريد في حضرتكم وعتبتكم.

لم يفهم فؤاد شيئا من هذا التقابل في الكلام. بقي صامتا ومنتظرا استمراره.

ـ سمّيت مضمون هذا الحديث القدسي بديمقراطية الدين والعقيدة. طبعا تبدو كلمة ديمقراطية ثقيلة وغريبة. فما بالنا بمجاورتها للدين. إنما هذه هي تركيا الجديدة، تريد أن تنشر الدين الإسلامي بمفهوم عصري مناسب. لذلك جعلنا التعليم في مؤسسات خارج شبه جزيرة الأناضول. لذلك ارتأينا أن ننفتح على العالم بما يليق للعقل والكلمة الطيبة. سيد فؤاد. إذا سألتك وأستسمحك في ذلك، من هو ولي الله؟

فاجأه السؤال فانتفض معدّلا جلسته وباحثا عن جواب. شعر بالحرج في كل ذلك، لكنه بادر إلى جواب حذق بما استطاع:

ـ مثلا. نقول إن مولاي إدريس ولي الله. هذا مثال.

ـ جميل. و أين يوجد مولاي إدريس؟

ـ في قبره وضريحه بمدينة مولاي إدريس زرهون قرب مكناس. ذاك الجبل الذي ينشر ضوء مصابيحه أمامنا، خلفه توجد المدينة والضريح.

ـ أنت يا سيد فؤاد، تصلي، تؤدي واجباتك الدينية ونوافلها، تتقي الله وتبحث عن رضاه، فأنت ولي الله. كل واحد منا كبيرا أو صغيرا، ذكرا أو أنثى يمكن أن يكون وليا لله. هذه هي عدالة الإيمان. لكن العلم اللدني الذي تكلم عنه الحاج اسعيد شيء أسمى وأعلى.

بارك الحاج اسعيد قول الحاج كمال، وختم الكلام بالدعاء والصلاة والسلام على رسول الله المصطفى خير الأنام. فتح الحاج كمال بعد ذلك حقيبة سوداء كان يضعها بجانب كرسيّه وأخرج أوراقا بدأ يشرح مضامينها وأرقامها للحاج اسعيد والسيد عبدالجواد، فيما قام الشيخ حميد وذهب داخل إقامة الفيلا. بدا حديثا في التجارة وصفقات جديدة، ما استطاع فؤاد استنتاجه خلال متابعته للثلاثة.

غمامة لم تمطر. تلك كانت حكاية أسماء مع فؤاد. ظنّتْها سحابة عابرة، وظنّها فؤاد جرحا ودرسا من دروس الزمن. أمّ فؤاد، تسلّحت بثقافة المرأة والأم. اعتبرتها من حيَل ومكائد النساء. حين اصطدمت المرأتان مع مشكل فؤاد، تبرعم شعور جديد عند أسماء. فتح قوسا للتفكير في خطوة طائشة وحالمة وجميلة لحظتَها. شاركت فيها صديقتها واعتبرتها من علامات النجاح والنمو في الحياة عند كل فتاة طموحة. لكن الشعور كَبُر كسؤال: هل كنت مذنبة إلى هذه الدرجة؟

سؤالها الذي حاولت أن تبرّىء ذمتها به، اجترحت بريح قوسه، المنصول سهمُه، فالقا شعورَ زوجها الحسين.

كان في هيأته وأناقته ولباس الموضة والسيارة الجديدة. وسامته التي تعلقت بها أسماءُ فتاةً وزوجةً، وافترشت بها حين القران وحين الترقي في العمل وفي الصورة الجديدة لحياتها داخل مرافق المدينة. هذه الوسامة كانت إلى جانب نباهته ونجاح تواصله مع الجميع عنصرا مشجعا لانخراط الحسين في علاقات راقية وجلسات باذخة ومعاملات كبيرة داخل العمل وخارجه.

فأن تمر في الشارع الرئيسي للمدينة الجديدة وينادي عليك تاجر كبير، يعانقك، يدعوك لجلسة مقهى أو وجبة غداء، أن يستأمنك على نقود سائلة في متجره

لكي يقوم الحسين بحملها وإيداعها في حساب هذا الزبون أو ذاك، فهذه مقامات جديدة للعيش، غيّرت أسلوب العيش وشروطه.

هكذا استبدل الحسين مع زوجته أسماء الشقةَ بأخرى أكثر فخامة (دوبليكس)، والسيارة بغيرها تناسب الصورة الجديدة، سيارة مصنفة (كلاس) وكبيرة. أما مجال العمل، فقد ترقى فيه في السنوات الأربع الأولى ليصبح مدير وكالة بنكية بشكل رسمي، وتصبح أسماء مشتغلة في مقر آخر دون هذا الذي انتقل إليه زوجها.

راهنت أسماء على هيأة جمالها وحسنها و شبابها، سايرتْ أرقى الماركات التجارية في اللباس والأحذية والعطور وثقافة اليومي في خلق الاندهاش المتجدد لزوجها بحُلّتها ورونقها. كان المجتمع المحيط يبارك للزوجين تألقهما. يعتبرهما مناسبين ونموذجين. لكن تلاقي العيون ولو كانت محبة تتسابق معه الأحلام والآفاق مع بريق تطلعاتها وتنافساتها. ربما الكل يريد أن يصبح الحسين أو أسماء، أو على الأقل أن يكون معهما.

لم ترغب أسماء في السقوط في فخ الغيرة. اعتبرت سلاح شخصيتها كافيا لكي يصُدّ كل شكّ أو اتهام. لم تكن تدري أن لكل شيء ثمنه داخل المجتمع، والمجتمع يتجاذب أنانياته ويتضايق في تجاورها حدّ الإقصاء أو الزحف على مجال الآخرين... ربما هي حكمة اكتوى بها الكبار ورفض الصغار فتح آذانهم للاستفادة منها كدرس. رائحة البخور التي تستنشقها كل يوم جمعة في الغالب حين زيارتها لبيت أسرتها بالمدينة القديمة، دعوات أمها وتعويذاتها المتكررة

والمتتابعة، كل هذا، كانت أسماء تصُده كاحتمال شر أو أذى بابتساماتها وفرحها، بجمالها وعملها وعطرها الرفيع.

إنما السي الحسين، أو موسيو الحسين كما يرتقي الخطاب في مناداته ليصبح إطارا مقدّرا شأنه في المعاملة والذكر، سيرتقي نفَسه وشخصه. بدأ العمل يأخذ منه ساعات إضافية، وبدأت العادات الجديدة التي كانت نشوة وعابرة وموسمية تخترق يوميّه ليَجد نفسه في عالمَيْن، عالم عمل منفتح بثقافة عيش جديدة، وعالم حياة زوجية مقيّد بلقاءات مسائها أو بعض خرجاتها نهاية كل أسبوع من الأسابيع.

ما لا يظهر يوم الجمعة حول قصعة الكسكس، مع العائلة وبركة هذا اليوم الدينية، يتجلى وينجلي في اليومي الذي يعتبره الجيل الجديد ثقافة عيش متحررة. ثقافة مرتبطة باللغة وأسلوب العمل وقوانينه ومؤسساته الهرمية الصاعدة في شبكة عالمية يصبح معها الفرد جزءا من كل، طموحه من طموحاتها وثقافته من ثقافتها.

هكذا بدت الأمور عند موسيو الحسين، علبة المارلبورو، وجلسات فندقية قد تجمعه مع بعض الزبائن أو مع بعض الصداقات الجديدة الباذخة في أسلوب العيش. جرعات الويسكي أو الكونياك، هذا الشراب النقي والمعطر الذي يليق بمقام البذخ الجديد. همسات الاستثناء التي تخترق مشاعر موسيو الحسين من سيدات وفتيات تطمعن في أكثر من علاقة عمل أو خدمة. عالم هدايا وخدمات وعالم حرية جديدة بدأ يشعر بها الحسين فرارا من تعب العمل وقيد

الحياة الزوجية. قد يكون التوازن موفقا، وإذا اختلّ بين العالمين، تصدّعت أركان إحداهما.

قد يحدث اتصال هاتفي لأسماء في ساعة متأخرة من الليل توترا وغضبا إذا تكرر. ربما يذكرها بأن منطق المسؤولية يلزمه بهذه الجلسات. ربما يرتاح الزوجان لبعض المبررات، وربما تكون وتيرة التوتر والضغط عالية فتحدث التباعد في التأوهات وأشكال الانزعاج الداخلي الوجداني.

لم يكن صدع أسماء في مواجهة أم فؤاد لها هو الشرارة الأولى. كان الصدع قد مرّ كزلّة تغتفر إذا كانت لمرة واحدة وباعتذار أحد الطرفين وطلب عفوٍ. فضيحة الفندق التي انتشرت كخبر رصيف شهي لاكته الألسن لمدة. فضيحة ضبط مسؤول بنكي مع سيدة متزوجة في غرفة داخل فندق راقٍ ومصنفٍ بالمدينة. حضرت الخلوة وغاب العري، وتمّ تفسير اللقاء بجلسة عمل ومصالح مستعجلة.

تسارعت المكالمات على أعلى مستوى إدراي وأمني. استدرك الجل ضرورة طيّ الملف وجعل حدٍّ لسيل هذه الفضيحة. لم يرقِ المسؤولين أن تخرج المدينة من ملف إلى آخر. ربما سيثير عليها الأمر الأجهزة المركزية. وأهل الخبرة المركزية يعلمون بأن تداعي مثل هذه الأوراق في السقوط يعني عدم تماسك المدينة في حكامتها وضبطها لأمورها القانونية وغير القانونية. للتو خرجت المدينة من ضجة شبكة السيدات اللواتي تستغلن فيلا فاخرة في استقبال شباب وسيم والتمتع بهم للحظات. عملية كان للوساطة الجنسية دور في تطورها، فكانت خمس

سيدات وزيجات لأكابر في السلطة والمال متورّطات في الأمر. وبقدر احمرار الأعين استشاطة وغضبا ورغبة في البرهنة على قدرة النفوذ والجاه في الانتقام القاسي، بقدر غَوْر هذه الأمور وصاية تحت سلطة العقل الذي دعا إلى الاحتكام لواقعية تختبر الخسائر الجمة التي سيحدثها تفجير الأمر. إحدى هذه السيدات كانت في استضافة موسيو الحسين في الفندق أو هو الذي كان ضيفا عندها. ويبدو أن أسرار الجنس تنفلت من البيوت إلى الفنادق.

تسربت رائحة الفضيحة بين دوائر العمل، حاولت تركيم عطر زوجته أسماء الذي دأبت على شرائه أو التوصية عليه من محل (جيرلان) بشارع الشون ايليزي بباريس. حاولت استبداله بنتانة متعفنة. وكيف ستكون الصدمة؟ من يحلق في سماء بخياله وفرحه لا يريد من يذكّره باحتمالات السقوط من عليائها إلى دركها غالبا.

ـ مستحيل. هكذا جاء ردّ فعلها. أكيد أن هناك لُبْسٌ وغموض ما.

سألت عن اسم السيدة وعمرها. طمأنها عدد 36 الذي لم يكن بقدر شبابها والذي لم تصل معه الثلاثين بعد. هاتفت زوجها الحسين:

ـ أريد أن أسمع الحقيقة منك فقط. لا أقوى على صدمة دخولي للعمل وتلقي خبر بمثل هذا منهم. قل لي ماذا يقع؟ وماذا وقع؟ لا أصدّق أي شيء.

ـ كنت أريد أن أحكي لك كل شيء بالمنزل. لكن، مادمت متوترة سأروي لك عبر الهاتف كل شيء: كانت السيدة في غرفة لصديقتها التي زارتها بالفندق.

طلبت مني استعجالا الالتحاق بها في خدمة إنسانية. صديقتها تقيم بإيطاليا، وعندها مشاكل مع زوجها. خافت على سيولة مالية مهمة كانت معها في حقيبة، لم يكن عندها الوقت الكافي لفتح حساب وإيداع المبلغ، لذلك جعلت أمانة ذلك المبلغ ثقة في وكالتنا البنكية. هذا كل ما هنالك. إذا ما سمعتِ شيئا آخر لا تصدقيه أرجوك.

اكتفت بالجواب الذي سمعته. هاتفت أمها وانهمرت بالبكاء خلف مكتبها وبابه الموصدة قبل أن تجفف نهر دموعها وتشرع في حكي ما سمعته من زوجها. طمأنتها الأم بأنها أزمة وستمر. عيون الحساد كثيرة. الكل يغار من زوجها وعملها. وبقدر دفاع الأم عن صيغة الحسين بقدر اتساع حجم خوفها من هذه الزوبعة الجديدة التي عتّمت هناء حياتهما. أعادت الأم مكالمة ابنتها في الهاتف:

ـ أين أنت الآن؟

ـ في العمل داخل مكتبي. أين تريدينني أن أكون.

التوتر بادٍ على لكنة الجواب و شرارة الغضب تتسلل لتنفجر في أي كلام أو خطاب.

ـ لا تكلمي أحدا. حاولي الانصراف باكرا من العمل والحقي بي هنا في بيت أمك. وإيّاك ان تذكري شيئا لبّاك الحاج. تعلمين أنه مريض بالسكري. الله يستر إذا سمع شيئا من هذا ستكون قيامته في الدنيا قبل الآخرة.

كان حديث الأم حين اللقاء عن الحمل، والاستفسار حول أسباب تأخره.
حدس الأم يبحث دائما عن ضمانات علاج واستقرار جديدين.

تركيا:

هل يجوز الجهر بأسرار البوح؟ أن تكون خيوط القدر المتحكمة في اللحظة منتمية لأمكنة متعددة ولأزمنة مختلفة؟ ذلك قدر الكتابة عن فؤاد، وعن الوقوف معه في لحظة بريئة إلا من حلْم الفوز كشاب بابتسامة وعبق عطر فتاة اسمها أسماء.

كان جيبُه خزينة دولة تمتلك ضمانات تحقيق هذا الحلم ـ الأمنية. خمسون درهما موزعة على سماء الأفق والسحب المُشكّلة لمخيّلته التي لا تسعفه دائمًا في الوصول إلى المنى.

الخيط الأول للقدر:

الحاج كمال:

لم تكن ليلة الفيلا بكافية للتعرف على شخصية الحاج كمال. لحظة الاندهاش تكون مثل ملصق فيلم يركز فيها المخرج له على صورة ولحظة معينة، قد تصير بالقوة أو بالجنس أو بالمشهد الخارق... ربما هي لحظة رؤية فؤاد للحاج كمال تلك الليلة. وقد عاد الحاج كمال بعد أسبوع تقريبا لبلده تركيا.

تركيا، هذه الدولة التي عرفت انفتاحا وشهرة ساعدت عليها عولمة وسائل الاتصال والتواصل، وعولمة الاقتصاد والتجارة. تركيا التي لا دخل لفؤاد في

حقيقة سياستها الخارجية وتحالفاتها الاستراتيجية في المنطقة. يبحث فؤاد عن شبه للحاج كمال في ملامح إحدى الفنانين أو الممثلين التركيين الذين غزت مسلسلاتهم التلفزيون المغربي بفضل الدبلجة اللغوية المغربية، وبالتبع غزت حواسه ولحظاته اليومية. تبدو الصورة مثالية وتشبه لقاء مخرج فيلم مع جمهوره المشاهد ومحاولة سؤالهم عن سر الحقيقة من الوهم أو الخيال الذي بنى به أحداثه. قد يخافون من هدم ما تلقوه وأعجبوا به. في بعض الأحيان، كان فؤاد ينزعج كثيرا حين قراءته ذلك التعليق في بداية لفيلم أو نهايته:

أي تشابه بين القصة وشخصياتها مع أشخاص واقعيين هو بمحض الصدفة.

قد يعلق في حديث مع مجاوره أو محاوره في المنزل أو في المقهى:

- يعرون الواقع ويتملّصون من فعل التعرية. بحال (التقرشيلة في القفا)، تضربه وتقول والله ما أنا.

ربما يضحك محاوره أو مجاوره، وربما تبقى قهقهات فؤاد الخفيفة مؤنسة لاحتمالات تفاعلاته مع الشاشة.

كان اللقاء بمقر الحزب الذي يفخر الحاج كمال بالانتماء إليه Adalet ve Kalkinma Partisi.

يلج الباب الزجاجي الرئيسي، منشرح الأسارير. يرفع بصره ليُملّيَ نظره بالزخرفة ثمانية الزوايا التي تتخلل المربعات المتصدرة لوسط المبنى وواجهته الأمامية. أَلِف

عدّ طوابق المبنى السبعة. هذه المرة، كانت مضامين التقرير هي التي تشغل ذهنه في تتبعها.

يفخر الحاج كمال بانتمائه الحزبي داخل شبكة الهويات المختلفة، وداخل أسلاك التاريخ الشائكة والتي اجترحت بها الأفئدة والأجيال. يريد أن تكون مدينته أنطاكيا نموذجا للتعايش السياسي وللاعتراف بالتاريخ التركي العام. لكنه يريد في نفس الآن أن تتوج ثقافته العربية الإسلامية داخل هذا المد الحضاري التركي الذي يعرف تأرجحات هرمية بين أسفل وأعلى. هو الآن يراه متراصّا في التألق الحضاري الجديد الذي سيعيد لتركيا بهاءها المجيد والممتد عبر قرون.

لم يكن اللقاء لتشريح تفاصيل هذا الامتداد الوجداني لانتماء الحاج كمال الحزبي، لكنه مجموعة أفكار عابرة للوعي بشكل عفوي رغم أنها لن تكون هي البذور الحقيقية للسياسة، ولا ما ستحصده من السياسة. قد تبقى سحبا جميلة عابرة لفضاء حقولها صعبة المراس في تحقيق الأمنيات، حتى إذا ما تجاوزت الحدود في الجهات الأربع تبخرت لتبدأ سحب أمنيات أقطار أخرى.

كان ملفه الأزرق يتضمن تقريرا عن زيارته الأخيرة لبلاد المغرب. تشرّف بالمهمة الجديدة التي أصبح يتقلدها والتي يعتبر نفسه سفيرا فوق العادة فيها. ذاتيا، الحاج كمال من أصول علوية قديمة استقرت منذ قرون عديدة بأنطاكيا. كان مبرر الأجيال مع التحولات في الحكم تحت ذريعة راية الإسلام. والآن، يشعر بأن مشروع حزبه الذي ينتمي إليه سيعيد هذه الأمجاد وسيرمم هويته وتاريخه.

الحلم كبير والخارطة كبيرة، آخر جملة كتبها التقرير. كانت أهم النقاط التي تضمنها التقرير تتعلق بقطاع التجارة، قطاع التعليم، قطاع العنصر البشري المواكب للإنجاز.

يقرأ المسؤول في الحزب تقرير السيد كمال وتبدو على محيّاه ملامح هدوء وابتسامات. لم يرفع عينيه عن صفحات التقرير إلا حينما انتهى من آخر سطر فيها مع الجملة التي نطقها مكررا لها جهرا:

ـ الحلم كبير والخارطة كبيرة.

ـ جميل هذا التقرير سيد كمال. إن حزب العدالة والتنمية يفتخر بالمجهودات التي تقومون بها. هذه الدقة وهذا الضبط، وهذه العلاقات المتينة التي تحقق نجاحات غير متوقعة في مشروعنا. كل هذا مدعاة للفخر. تعلم أن مسؤولياتنا أصبحت بحجم كبير جدا. وكلنا يضحي بوقته وجهده من أجلها. إنما ما باليد حيلة، مسؤوليتنا مسؤولية الأنبياء. ما استطاع محمد صلى الله عليه وسلّم النجاح في دعوته بسهولة.

ـ صلى الله عليه و سلّم.

ـ هل يمكنك حاج كمال أن تضيف لمهامك مسؤولية جديدة؟

ـ مثلا؟

ـ السهر على انتقاء شباب جدد للمشاركة في مشروع التغيير في بلاد الشام. تعلمْ أن هذه الأمانة لا نجعلها إلا لمراكز القيادة الأمنية. والحركات الإسلامية في بلاد المغرب غنية بخطابها الجهادي. كما أن سياسة البلاد هناك تتماشى مع المشروع الدولي الذي يتوخى تغيير النظام في بلاد سوريا على الخصوص. مئات الشباب استطعنا إيفادهم من هناك، وكل واحد منا يبحث عن الإضافة في هذا الشأن. وكل هذا لن يؤثر على باقي المشاريع التي نقيمها هناك. بل إننا كما تعلم نصرّ على عدم جعل علاقة ظاهرة تجمع بينها. سياسة تركيا الوطنية الداخلية مستقلة عن سياستها الدولية. هذا شعارنا.

ـ ما زلت أتذكر خطاب الزعيم أحمد داود أوغلو لسنة 2009:

{نعم نحن العثمانيون الجدد. ونجد أنفسنا ملزمين بالاهتمام بالدول الواقعة في منطقتنا. نحن ننفتح على العالم كله، حتى في شمال إفريقيا.}

ـ يسكنك حلم أنطاكيا، حاج كمال. مداواة دول الجنوب عمليات قيصرية ضرورية. للأسف لا نمتلك خيارات أفضل.

ـ أنطاكيا الآمنة، أنطاكيا الحالمة، تضررت كثيرا من الصراع في الجنوب. أتمنى أن تحصنوا المدينة من كل فوضى. يحفظ التاريخ ذكريات أليمة للتطورات الحضارية بها. ربما أنطاكيا هي رحم الولادة والوجع، والألم طبعا. سأسافر غدا إلى أنطاكيا، وأريدكم طبعا أن تجعلوا توصيات تحافظ على مشاريعنا هناك. تعلمْ أن مناخ الحرب يفرض اقتصاد حرب موازٍ له.

ـ لا تنس حاج كمال أن تتصل بقسم الشؤون الثقافية والأثرية في أنطاكيا. هناك تفاصيل تدبير وعمل جديدة. كنت أود أن أدعوك اليوم لكنني ملزم بالسفر هذا المساء إلى إسطنبول.

الخيط الثاني للقدر:

كان استقرار نعمة الجديد بمدينة طنجة. تشافت من إصابتها واسترجعت شكلها الجميل. ربما أفضل مما كانت عليه. بوادر السمنة التي زادتها وزنا في البداية، انمحت وانمحت معها آثار انتفاخ أمعاء وجنبات بطن.

طنجة، بوابة بحر و بالوعة احتواء. حدة تناقضاتها تخلق أشكال تطرف بين أقصى أطرافها، بين تزمت وانحلال. لكنها قد تخلق مزيج هذه التناقضات في الشخصية الواحدة، فتجد اللباس التقليدي إلى أقصى درجات تعبيره عن التزمت، والإدمان المرافق لصاحبه أو صاحبته. قد تدخل حانة فتلاحظ مجيء امرأة بنقابها، تنزعه وتجلس لاحتساء كأس جعة أو نبيد باردين وسيجارة مارلبورو أو وينستون. وقد تلاحظ شابا بتسريحة شعر غريبة وسروال منخفض الحزام وهو ساجد لأداء ركعات داخل مسجد. وقد يكون الفرد مقيّدا بقانون الأسرة أو الحي حتى إذا كان خارج دائرتهما انقلب سلوكه مائة وثمانين درجة مائوية.

هذه طنجة بمنظومتها الأخلاقية والقيمية المركبة والمعقدة. لكنها لا تهم نعمة ولا تملأ فضاء تفكيرها. فترة نقاهتها وتعافيها وقد ساعدتها على اقتناء سكن اقتصادي صغير في مدخل المدينة من جهة طريق الرباط. أسعفتها بعض المدخرات وكذا ما قدمته أسرة فؤاد لها كتعويض مالي عن الحادث. معارف قديمة وقد تواصلت

معها فكانت كالملاك الطاهر الذي سيزحف على ليالي طنجة ورحابة متعتها. هل هي الصدمة التي تولد الجديد؟ أصل الانفجار العظيم الذي خلق العالم الذي نعيش فيه؟ بعض من النظرية أو الفرضية حاضر هنا مع نعمة. تعيش شخصية جديدة غير تلك التي سادها الطيش والتهور. جمالها الذي تدللت به على زبائنها وعشاقها لم يسعفه عقلها في البداية أو خلال المرحلة الأولى قبل طنجة. فقد تتمرد على زبون متيم بها وينفق عليها آلاف الدراهم، فقط لإرضاء شيء من الكبرياء والعجرفة التي تعترش بها داخل أنوثتها. وفي ذلك قد تهوى وتسقط من تصنيف خمس نجوم إلى الدرجة صفر، فتنهض مثل ذلك الفينيق الذي تجهله ولا تهتم لرمزيته. في ليلة تمرد على شرطي أهانته وباتصال هاتفي مع المسؤول الكبير عليه في إدارته، أطلق سراحها وتمّ توبيخ الشرطي الصغير. بقيت عبارتها وصمة عار وذل منقوشة على جبين ذاكرة وضمير الشرطي المسكين. قالت له: أنا التي تهين ولا تهان. فهمت؟

لكن هذا الانتقال الجديد خلق لها غربة داخلية جعلت حدّا لذلك الطيش وذلك التهور. أخذت تدريجيا تعيشه حنينا حتى باتت راشدة ومعقلِنة لخطواتها وتدبير مسار حياتها. وما يسعف السمكة التي تدربت على العوم في النهر إذا انتقلت بفعل قادر للعيش في يمّ البحر بأمواجه وشساعة أسراره؟

ـ الحيتان كبيرة هنا يا نعمة.

هكذا تأتيها كلمات صديقتها الجديدة رشيدة. استضافتها نعمة في شقتها ودعتها للإقامة معها. فرصة ساعدت الإثنتين على التقارب والتكامل في العيش الجديد.

لكن نعمة تتنهد فيصّاعد نفَسُها غريبا تستنشق معه رذاذ الأمواج ورطوبتها التي يرسلها البحر المقابل بمقهى بانوراما. كلما رأت سفينة تخرج من الميناء، ارتبط بها اجتهاد المرفأ الإسباني الذي سترسو به، طريفة، الخزيرات أو غيرهما. وحتى إسبانيا لم تعد ذلك الحلْم الفريد والوحيد الذي يستحوذ على مجموعة من الفتيان والفتيات. هناك إيطاليا، تركيا، لبنان وغيرها من الدول الجاذبة لهذه الأحلام. كما أن هناك المدن المغربية الأخرى التي يمكنها أن تجلب الحظ أكثر من غيرها.

تستفسر نعمة عن هذه الآفاق الجديدة، وكل مرة تضيف عنصرا جديدا في التحليل، يؤثث حلمها الجديد. ستكتمل مع كل هذا ثقافة جديدة وهوية جديدة تنتمي إلى المتوسط، وطنجة ابنة شرعية للبحر الأبيض المتوسط قبل أن تكون منارته المطلة على المحيط الأطلسي.

في ظرف سنتين امتلكت نعمة شخصيتها ونظمت علاقاتها وكان فيها وجود لزبائن مستقرين من أوربا والمغرب وبعض الدول العربية.

ـ كلهم زبائن؟ تستفسرها صديقتها رشيدة.

ـ نعم. مجرد زبائن، ما داموا لم يستطيعوا فَطر فؤادي وامتلاك قلبي. تجيبها في حسرة ولحظة ضعف إنساني قبل أن يكون ضعفا أنثويا.

رغم الحساب البنكي والشقة والسيارة، كانت تتوق لتحرر آخر وحياة أخرى، إلى مكان تكون فيه حياتها مشروعة ومحمية بالقانون، لا في مكان يرفعون فيه المرأة كزهرة نرجس مشتهاة ويسقطونها كنفاية في زبالة التاريخ. كل ليلة تعتبرها

خروجا من جحيم، ما دامت كل ليلة هي عمل وحياة خارج القانون والشرع والأخلاق.

تزايدت مخاوفها حينما أصبحت نظرات البعض غيضا وكراهية، بل منهم من يُسمِعها وابل الشتم والسباب، ليس لشيء سوى لكونها عاهرة و فاجرة بحسب تعبيرهم. لباسها الذي تذهب به للسهر، عودتها مع طلوع أشعة الشمس، دروب الالتقاء التي يتقاطع فيها المارة فتجد حينها من يمارس النهي عن المنكر بأشد وأغلظ الأيمان والوعيد والتهديد. وكأن نعمة ومثيلاتها سفيرات هذا المنكر وحطب جهنم. طنجة لا ترحم مثل موج البحر الذي يتقاذف بالمركب الصغير، لا يهمّه إن كان يقتات لعياله أو يعبر مضيق جبل طارق لكي يحقق حلمه.

طنجة، تستقبل ضيوفها، قد تعلّي من شأنهم، وقد ترديهم أسفل سافلين، وقانونها قانون كازينو، أدخل بالمال واخرج عاريا إلا من لذة مغامرة ومخاطرة. لذلك قد تشفق نعمة على أحوال من تشددوا وتزمتوا، على حال أولادهم الذين التهمتهم نيران الفتنة والمتعة في طنجة. لكنها سمكة خارج نهر براءتها الطاهرة الذي ترعرعت فيه كطفلة وكصبية. نعمتُها في تسميتها وفي جمالها، ونقمتها فيهما معا كذلك. هكذا أصبحت لها فلسفة تبوح بها لحظات استراحة حين الاستيقاظ من النوم، وما تكاد تصدق أنها على قيد الحياة. كل ما تمر به ليلا حبائل وشراك منصوبة للإيقاع بالزبائن وبخاصة الجدد الأغبياء الذين يسيل لعاب غرائزهم من أجل المتعة وتلبيتها.

ـ كيف لا يكون حمارا وقد بلّل سرواله بمنيّه وهو جالس في مقعده. اللعنة عليه. الكلاب وتتحكّم في غرائزها. ههه، ذلك السكران في بيتش كلوب، طلّق زوجتَه عبر الهاتف إرضاء لفاتنة بجمالها ونيل قُبْلة منها أمام الملأ. اللعنة.

لم تصدق نعمة نفسها حينما أتتها الفرصة ناضجة ومكتملة كأنها في فصل ربيع لتفتح زهرتها تلك. أتتها الفرصة للهجرة إلى الديار التركية، حلمها الذي تراه نجوميا في تحقيقه، كأنها ستقوم بسفر إلى الفضاء. رافقتها دمعة الفرح. فعلا كانت دمعة فرح. الاسم: عبد الكبير العمري. ومع تصغير وتحبيب يناديه الجميع ب كِبِير. ومع المزاج والقلق ترتفع حركة النداء: كبور. أما في تركيا فيختصر كل هذا بمناداته ب: كَبُور.

يقهقه ذو الشارب الكث والقامة الطويلة والذراعين الصلبين مع الوشم الأخضر الذي يزيّن يمناه، ويعلّق أمام فاتنته نعمة:

ـ ناديني حُبًّا بعبد الكبير. وفي أوربا ب(كبير)، وفي تركيا بكبور.

دامت علاقتهما ثمانية أشهر. سافر خلال هذه المدة خمس مرات تقريبا. اثنتان لإيطاليا وثلاثة لتركيا. كلما سافر ترك لها قدرا ماليا مهما بين العشرة آلاف درهم والعشرين ألف، إلى أن اقترح عليها في لحظة مفاجئة فكرة الزواج والهجرة إلى تركيا.

ـ تركيا. مرة واحدة. بلاد غريبة ولغة غريبة كذلك. هكذا علّقت إحدى صديقاتها.

كان خوفها وارتيابها من نفسها أكثر من خوفها من تجربة زواج مع عبدالكبير. فأن يسلخ المرء من لباس نفسية ومشاعر وذهنية وأفكار وعادات، أمر يشبه الموت. هكذا عاشت ليلة بيضاء في أرق، تبعتها نومة عميقة استغرقت تقريبا ست عشرة ساعة. لا تقوم إلا لمرحاض أو لشرب ماء.

ألفت نعمة حياة طنجة وأرادت حرية مثالية خارج طنجة وخارج بلدها المغرب. تركيا بالنسبة لها مطاعم وفنادق وملاهي ليلية ومراقص وسياحة. أما بلدها فجل الناس فيه حين تعبّر غضبا تدعو: الله يعطينا شي هزة من هاذ البلاد. قد تبتسم في لحظات تروق لها فتعلّق إذا سنحت الفرصة في المزاح على القائل: الحمد لله أنك تريد هزة من البلاد ماشي في البلاد وإلا كنت ستردمنا وتدفننا هنا وترديبا معك خرابا ودمارا.

إسطنبول وجسورها والحكايات التي تروي سحرها. ودّت لو كانت دعوة لعطلة سياحية للسفر والمتعة ثم العودة من جديد. لكنها دعوة رسمية ستحد من كل تجاسر وكل سلطة حرية فردية تكون نعمة المسيري قد اكتسبتها في طنجة. تحاول أن تعيش بالنظر إلى الأمام دون حكٍّ على الجراح، دون التفات إلى الذاكرة المُرة التي تختفي خلسة كخط خفي بين خلايا خصلات شعرها الذي أصبح بمظهر و (لُوك) جديدين وحلة جديدة هنا في طنجة.

تضحك ملء شدقيها كلما أجابت عبر الهاتف مستقبِلة أو متصلة:

ـ هنا طنجة. هنا المريخ.

تكون الجملة لازمة متداولة بين أفراد الشلة والرفقة التي تشكل مجتمعها الأقرب. أما العائلة فلا مجال لحضورها هنا. تزور أهلها في العيدين، عدا ذلك فهي المشتغلة في شركة بطنجة، وهي المهاجرة إلى إسبانيا أو إيطاليا. هذه المرة ستكون متزوجة في تركيا. لكنها هذه المرة ستكون بأوراق رسمية وخبر صادق. تعلوها حمرة فوق خدّيْها كلما تذكرت معها طفولتها وخجلها البريئين. ليتهما عادا في هذه اللحظة. لكن سرّ قدر فؤاد يستغرب ويتساءل حول محلّه من الإعراب داخل يم هذا البحر من الكلام؟ ورطة تهشيم رأسها وقد غيّرت مسار حياتهما، فهل سيكون قدره في روح وقدر نعمة أم في قوس حياة عبدالكبير العمري؟ وهل سيكون العالم قرية صغيرة فعلا؟

فيما مضى، كانت الصدفة في اللقاء الذي يجعل تواجد شخص في نقطة أوجدت شخصا آخر، تباعدُ أمكنة قرّبت الصدفة فيها بين الأشخاص. اليوم، معادلة القرية الصغيرة اختزلها عالم الأنترنيت ليجعل التقارب والتواصل بين الأفراد وليكسر قياس الزمن والساعة والنهار والليل على مدار الكرة الأرضية على الأقل. فأي فلسفة سينخرط فيها قدر فؤاد بين خيوط هذه الصدفة؟

بعد مرور سنة ونصف تقريبا على فضيحة الفندق التي تورّط فيها موسيو الحسين، المسؤول البنكي المرموق على صعيد المدينة، اندمل الجرح وهمد

البركان وتُوّجَ رماده بزهرة ربيع جديد، مولودة فاتنة اختارت لها أمها اسم فرح. علّه فرح يطهر الوجدان من زوابع ما مضى وما اجترح به الفؤاد. كانت التهنئة بصورة مأخوذة لفرح متوسّطة أبويها ومغطّية للخبر في بعض الجرائد الورقية والإلكترونية. كان موسيو الحسين متألّقا من جديد، ذاك أن المجتمع يهاب من يخرج من الكوارث سالما ومنتصرا. يعتبره بطلا.

هي طبعا قيم سائدة دون أخلاق الكتب والمواعظ. وتلك فلسفته التي يعيش داخلها، فلسفة منافسة رأسمالية وليبرالية واقتصادية ومالية، الزحف على كل بناء وجداني لكي تبني شكلها الحضاري والعالمي. فكيف سيتجنّب الزلات والكوارث؟ هذا حذر موسيو الحسين في فلسفته الجديدة، في بذخه المتزايد تحدّيا لكل تهديد بالسقوط. يجلس بوعيه المعاصر والحامل لثقافة السوق والمنافسة، تخترق شخصيته مشاعر التحدي والفردانية والمضيّ في قرارات حريته الشخصية. يرى دوره داخل هذا التحدي. وحينما ينظر لعدد الدور الذي صعد درجه يستنتج استحالة التراجع إلى الوراء، ويقرر ضرورة الاستمرار في الصعود بشكل متسارع.

جلستُه في مطعم فندقه الجديد كانت طاولة مخصصة له كل مساء تقريبا. حجزها الأولي يبدأ بألف درهم. ولنتصوّر عمليات حجز بين حضور وغياب ودرجات استهلاك. ضيوفه مميزون جدّا، لكن الطامعين في فتات مائدته غير منعدمين. بين التاسعة والنصف ليلا والثانية صباحا يعيش موسيو الحسين جلساته الساحرة. قد لا تصعد الحسناء إلى غرفة في الفندق، يكفيه حضورها وعناقها

والتفرد بها. كل رواد الجلسات الراقية تهافتوا على مصاحبة موسيو الحسين. والرواد ليس من الضرورة أن يكونوا طامعين في مجانية جلسة واستهلاك لكحول وأكل وشرب مُرافق. فمثلما يدبّر ويدير عمله في المكتب البنكي يدير جلساته في الفندق. أكثر من ذلك أنه أصبح ينظم نوعية الذين سيحضرون لها لكي يصنفهم حسب مناسبتهم وميولهم وثقافتهم.

تكوين موسيو الحسين الجامعي اقتصاد وتدبير مقاولات وديبلومات راكمها بسرعة. ثقافته الجامعية والطلابية جعلته يحمل كل الأفكار فتكون مناسبة للتداول بحسب المقام النفسي والمهني والمعاملاتي والحواري العام والخاص. أصبح المعالج النفسي للشخصيات التي تجلس معه. ذكاء حادٌّ فعلا، لكنه مكلّف ذاتيا في بناء أنانية مستقلة داخليا لا يكشف أسرارها جل أصدقائه ومريديه. فعلا كانوا مريديه لأن من أراد منهم تطوير ذوق حياة الرفاهية بالمدينة الجديدة عليه أن يجالس موسيو الحسين ليرى نجاحاته في الابتسامة والمناقشة ومراودة الأنثى وتدليلها واختيار الشراب والأكل المناسبين في الوقت المناسب.

يستغربون لأناقته الفائقة، ولتوفيقه بين العمل وهذه الحياة الراقية. يتساءلون طبعا عن مصدر هذا الرزق الوفير الذي يُنفَق رفاهية. قد تأتيهم الأجوبة ضمنية من خلال الحوارات باستنتاج نوعية المشاريع التي أصبح موسيو الحسين يشارك فيها، فيرغبون في مشاركته مشروعا من المشاريع حتى يتسنى لهم أن يجالسوه في محفله الليلي أكثر من النهاري. لقد أصبح موسيو الحسين جنتلمان عند البعض، وكازانوفا عند البعض الآخر. ما دون اللقبين فهو لا يعير اهتماما

لأحكام القيمة الأخلاقية أي اعتبار. عالمه فوق أرض البشر. وعمله منطق سوق مفترس بالقانون وبنعومة التنافس المحقق للانتصار على حساب سقوط وإفلاس الآخرين. وداخل مكتبه يميّز بين ألوان الملفات، وبين أنواع السقوط والنجاح، وبين درجات الشرعية من الحيل التنافسية اللاأخلاقية واللاإنسانية. يكفيه هذا الوعي لكي ينال حظه من شقاوة الفهم للواقع والمجتمع، ولكي يكون المبادر للدخول لسوق العمل والاقتصاد والمال كفارس وليس كمستخدم كما أرادوا له في البداية.

من بين أصدقائه الأوفياء منذ أيام الدراسة، والذين يشكلون وجه عملتِه الآخر في الوعي والثقافة، كان السيد عبدالعزيز الغزواني أستاذ محاضر في اللغة الإنجليزية وآدابها. تكون جلساتهما مميزة ما داما يتقاطعان جل الاختيارات الشخصية باستثناء طبعا مورد الرزق. يحلّله لدرجات التحلل، حيث يصبح موسيو الحسين شخصية سريرية في نظر صديقه عبدالعزيز. يعتبره نرجسيا وقد تضخّمت أنانيتُه. يحذره من أخطار ما يغامر به وفيه، لكنه يجد المعاند الصلب في التحدي داخل ردّ فعل الحسين، و يرفض إكراميّاته ودعواته الباذخة فلا يقبل منها إلا ما يحدس لاستطاعة مبادلته إياه كدعوة واستضافة مماثلة ومشابهة. ربما أصبح أعز أصدقائه أشدهم إثارة للقلق وللتوتر. ربما كان السيد عبدالعزيز هو ضميره الحي الذي يغيب عن مضايقته لكنه يخيفه حين حضوره.

فهل كان فؤاد الشاربي ابن حيّه القديم في السكن على علم بكل ما يقع؟ هل اطّلع على بعضٍ منه؟ ما علاقته بما يقع إذن؟

لم تكن هذه الأسئلة لتخترق الأحداث لولا تلك الجلسة التي خلقت الحدث الجديد. جلسة لم تأت من فراغ طبعا. أسرارها عَقَّدتْها بعض السنين التي تلت جروح الشخصيات وتراقص قدر الحياة بهواء سمائهم فيها. قدر آخر ينضاف لما يمكننا أن نفهم به سرّ التحولات المستقبلية التي آلت إليها شخصية وحياة فؤاد الشاربي.

لم يختر فؤاد حياته الجديدة. ربما هي التي اختارته، خلقت ارتيابا عند أمه وأبيه. لكن توالي الأيام والأحداث ومرور السنوات كان كافيا لخلق طمأنة عندهما والشعور بارتياح في العالم الجديد الذي أصبح يعيشه فؤاد. يرى في منامه مرارا أحلاما متناقضة، امرأة تنزعه من فوق بساط الأرض لكي تحلق به في سماوات بلدان جديدة تختلط في صورها فلاشات الحكايات القديمة كما أسماء المدن التي كان يحلم برؤيتها خلال حياته، وما أجمل أن يهبه الحلم باريس وإسطنبول ومدريد والبندقية وغيرها. قد تكون الأفلام السينمائية التي تراكمت بأشرطتها وألوانها مؤثثة لهذه الأحلام، لكنها نفسيته هي التي كانت متشابكة مع تناقضاتها. بعض المرات يسقط من أعلى التحليق فيها فيجد نفسه متعرقا وقد سقط من فوق سرير نومه. مرات أخرى يستيقظ على وقع وجع وألم في ركبته من جرّاء صدمها مع الحائط في مشاكسة معركة وملاكمة تخلّلت الرحلة السعيدة فكان لزاما عليه أن يخوضها كمعارك.

ولكثرة تناقضات ما يرى كان نهاره الموالي لليلة نومه وحلمه يمر مضطربا وقلقا ومحدثا توترا في المزاج. الأمر الذي يجعله يفكر في التدخين وبشراهة. ما تبقى له من ارتباط بعالمه القديم أمام أسرته ودائرة السيد عبد الجواد هو هذه السيجارة، لكن تدخينها مقبول نسبيا ومتجاوز في الحكم عليه بقيمة من القيم.

في ذلك الصباح الموالي لوجبة العشاء بفيلا بليزانس، التحق فؤاد بالسيد عبدالجواد بقيسارية وادي الذهب، على الساعة الحادية عشر المتفق عليها بينهما. ناوله شيكا موقّعا بقيمة عشرة آلاف درهم. شرح له سبب ذلك وأقنعه بأن الجماعة انشرحت قلوبها له وقررت أن تساعده لكي يعيش حياة جديدة وعملا جديدا يحقق له كرامة واحتراما جديدين كذلك. تمثلت مسامه وشعر بالخجل وبتعرق وجنتيه، لكن السيد عبدالجواد انتشله من كل غرق محتمل وهيّأه لمهمة اعتبرها أولوية، فرِضا الله تعالى من رضا الوالدين:

ـ اسمع يا أخي العزيز. أعتبرك منذ الآن أخا صغيرا لي. إن الله سبحانه وتعالى يبتلينا في حياتنا لكي يهيّئنا لتوبة نصوح تجعلنا على الطريق المستقيم، طريق عبادة الله تعالى وتقواه. والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب. نحن لسنا سوى أسباب لمشيئة ربانية. لذلك لا تخجل من شيء معنا. هذا الرزق كتبه الله لك، وهو بداية رزق جديد موفور سينعم به الله تعالى عليك. حينما يعلم الخالق أن عبده مستعد لكسب رزقه وإنفاقه في سبيل الله تعالى، فإنه يجعل له خير الدنيا والآخرة بين يديه. وكل ذلك امتحان منه سبحانه.

يربت على كتفه و يعانقه حين رؤية فؤاد وقد اغرورقت عيناه تأثرا، ويتابع:

لا عليك أخي العزيز. نحن في قيسارية الذهب على علم بكل المعاملات. وقد علمت أن أمك البارّة قد رهنت دمليجا لها من الذهب الخالص لكي تأخذ قرضا بقيمة سبعة آلاف درهم. شاوِرْها وأخبرها بأنك ستسدد الدين وترجع لها

الدمليج. إذا سألتك عن مصدر النقود أخبرها بأنك بدأت الاشتغال معي أنا والشيخ حميد في المدرسة الحرة. ستكون مشرفا على الخدمات العامة فيها إن شاء الله تعالى. ما رأيك؟

لم يُبد فؤاد اعتراضا ولا موافقة. حنى رأسه وصمت خجلا واغتباطا بهذه الرحمة التي بدت في معاملة السيد عبدالجواد معه. ورفع عينيه بهدوء متابعا ما بدأه محاورُه من كلام:

ـ اعتبِرها بداية مشوار. ولا تنس أن الحاج كمال يريد منك اكتساب خبرة لكي يدمجك في مشاريع أخرى نشترك معه فيها هنا بالمغرب وربما في تركيا قريبا إن شاء الله تعالى.

في لحظة واحدة، انقلبت وضعية البطالة والإدمان إلى وضعية عمل وعلاقات مميزة. شعر بتوتر مع الوضع الجديد. كم من عطش وكم من خواء وجفاف داخلي أدفأته هذه الالتفاتة وهذا الشيك كما هذه الوعود الجديدة. قام بزيارة صديقه عبدالعاطي. اشترى فاكهة وبعض مأكولات ومصحفا جديدا. قدم ذلك هدية أخوة وعناق. حكى له حياته الجديدة، ودعا له السيد عبدالعاطي بالتوفيق والتواب. قرأ سرّا أمامه بعض الآيات من سورة يس، اعتبرها قلب القرآن وقلب الأخوة التي طهّرت حياتهما. حكى له السيد عبد العاطي سيرة حياته في بعض من المدة الزمنية المخصصة للزيارة. كيف انتقل من طوفان الكفر والجهل والمعصيات. يحمد الله تعالى على التوبة والنجاة من عالم الانحراف والجريمة. يحمد الله ويبدي الندم عن كل انفعال صدر منه حتى مما كان من شجاره

المسبب له في هذه المدة من الحبس. يؤمن بقضاء الله وقدره، ويعتبر أن الحياة مدرسة لأخذ الدروس وتلقي العبر. ربما قدره أن يلتقي بأخ جديد هو فؤاد. يبدأ معه طريقا واسعة تشملها الرحمة الربانية والإخلاص لله تعالى في العبادة والجهاد في سبيل الله.

ـ لا تلُم نفسك كثيرا. أكثر من الحمد والشكر، وسبّح ربك بكرة وأصيلا. ولا تنساني بالدعاء.

يستحضر فؤاد باندهاش ما حكاه له السيد عبدالعاطي. يستغرب لهول المغامرات التي عاشها، ولا يجد في حياته ما يقارن به درجات الخطورة والتحدي والتحول التي عاشها السيد عبدالعاطي.

حينما سمع السيد عبدالعاطي قصة أبي ذر الغفاري رفض اللقب الذي جعله له أحد رموز الزاوية التي أصبح مريدا بها. يروي لفؤاد ما سمعه عن شخصية هذا الصحابي الجليل، ويبدي احترامه وشغفه به، لكنه يجترح بتشابه روحيهما في جحيم الفراغ الذي عايشاه قبل الهداية إلى الطريق المستقيم. يسرّ له بكاءه في لحظة انزواء داخلي كطفل صغير. لم يستطع أن يفسر مع دموعه سرّ انهمارها كسيل جارٍ. لم يفارقه الخوف من تهميش جديد قد يهدّده به المجتمع مثلما تمّ تهميش أبي ذر فيه في الحجاز. لقد عانى أبو ذر وكأنه لا قيمة له في مجتمعه الإسلامي الذي جعله أبوة وأمومة وأخوة وبنوة. كان أهله هو الإسلام، وكان أهل السيد عبدالعاطي هو الإسلام كذلك.

يعلم هذا الأخير ما تركه كجماعات معاشرة ورفقة. عالم جريمة واتجار في المخدرات والممنوعات وجهل بشروط عيش اجتماعي أليف. ويعلم أن هناك من يعبث بنعيم الدنيا الذي جعله الله تعالى للبشرية جمعاء، لكن هناك أيادٍ تستحوذ على كل شيء فلا تترك للفقراء والمحرومين والأرامل والشيوخ حظًّا للعيش الكريم.

ـ لا أخفيك سرًّا. حينما أقرأ الآية الكريمة:

" إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ولِيَ نعجة واحدة، فقال أكفِلنيها وعزّني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات وقليل ما هم."

ردّد السيد عبدالعاطي عبارة (وقليلٌ ما هم) وصمت لثوان، ثم بعدها استمر في فكرته:

ـ تجدني أنظر في عيون السامعين للآية. في ردّ فعلهم وهم يقرؤونها. تجدني أنظر إلى نفسي وأنا أتأملها. أتساءل: كيف لهذا الإنسان أن يأكل حق أخيه. هذا ما نعيشه اليوم. هؤلاء المنحرفون الذين خرجت من دائرتهم هم نتيجة وضحية من أكلوا حظ المحرومين.

لا يهم السيد عبدالعاطي من هو معتنق للإسلام بقدر ما يهمّه ذلك الشعور بأن الإسلام هو موجٌ رفعه ونجّاه من مستنقع أفاع وجحور جحيم ليقذفه بوداعة فوق برية جزيرة خضراء بساطها إيمان وتحليقها صلاة وفاكهتها حلاوة حبّ في الله ولله. وكأن السيد عبدالعاطي خريج المدراس الصوفية التاريخية، لا يبالي ولم يبالِ بأي اعتراض على تصوره الذي استنتجه وعبّر عنه، ما قد يعلّق عليه به الآخرون:

ـ من حقه أن يختار كيف يجاور ربه. لعل الله أراده بالصلابة والقوة في الإيمان والعبادة والأفكار. طوبى له.

يتابع فؤاد حكي محاوره ومحدّثه. يندهش للحظاتٍ لتداخل الأفكار وتناقضها فيما يسمعه،. يندهش لدرجات التشبيه التي تتخلّل كلام السيد عبدالعاطي. يتأمل عينيه، ويجد فيهما مدًّا بحريا من اليقين والثقة ببلوغ مراده وشطّه. يضطر لقراءة ما كُتِب عن شخصية أبي ذرّ، فيقارنه بما سمعه من سيرة عبدالعاطي. يوم كان فتوة الجبال والكهوف. طفولته التي هجرته يتيما فوُجد مع أُقران درب المغامرة والمشاكسة والمنافسة والتقاتل حول كل شيء.

وفي كل مشكل أو صخب يزداد ابتعادا عن دائرة التمدن والحياة البشرية العادية. كان حظه من التهديدات، وهو صغير السن، من طرف بعض المتسلّطين على ضعفه وصغره، كافيا لكي يجعل خطّ السكك الحديدية المنحدر شعابا والمخترق لحدود حيه الشعبي والصفيحي، هو دربه الأول بين المواجهة والهروب. وكانت كهوف مقلع للرمال، منسي ومهجور، مملكته التي بنى عرشه فيها وحقق الزعامة لعصابة الأربعة، تلك الزعامة التي استحقها غلَبة وتحدّيا وشجاعة وملاكمة ومصارعة مع رسم خارطة الجسد الموشوم بآثار الجراح وتوقيع السكاكين والأسلحة البيضاء لتاريخ معارك بطولة وفتوة عصابة، حتى إن كل وشم أو أثر جرح هو توقيع لحدث وزمن وشخص وعراك ما.

حينما يدخل للسوق الشعبي أو السويقة بلغة أصحابها، ينال ما يريده من تجاره اتقاء شرّه وجبروته. عالم مخدرات وخمور وصراع عصابات لا يريد أن يستحضر لقبه فيه محوا لتلك المرحلة من الذاكرة. كانت جاهلية حقيقية كما مارسها وعبّر عنها وحكم عليها.

ـ ستستغرب حين رؤيتك لهذا الماثل أمامك. أي مقارنة بين شخصيتين؟ فعلا، لا مقارنة. ولكن حينما تأتي الهداية فهي تشق نورها في دهماء العتمة والظلام لكي تبدو قَبَسًا يكبر حتى يصبح شمسا مشرقة. والله تعالى يقول: (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم).

يبدو على ملامح فؤاد انقباض وغصة في حلقه. قد يفسرها السيد عبد العاطي بعجزه عن الفهم، وقد يفسرها فؤاد باندهاشه من امتلاك شخص عادي كان مجرما في ما سبق لثقافة وحفظ للقرآن وتحليل للأفكار. لكن هذا التخمين السلبي سرعان ما يبعده كل واحد منهما. ويتابع السيد عبد العاطي داخل هذا التعثّر النفسي الداخلي الخفي:

ـ أنا أعلم بظلماتي. ما أبشعها. مات أبي مقتولا وأُهمِل قضية. انزوت الأم مكلومة بالأسى والحزن والمرض. وفي بعض الأحيان يكون المرض هروبا من الخوف. وكأنني كنت ذلك الوحش الذي سيتهيّأ لمواجهة مصير عدالة غائبة. روّضتني الفيافي والكهوف ومنطق الغاب. حينما هممت بأخذ الثأر وجدت أن القاتل لأبي قد مات مقتولا. كما وجدتني وحشا يصعب إرجاعه لألفة اجتماعية أو مدنية كما يسمونها. كانت روحي خلال تلك المدة مثل طائر جريح، وكانت أمي ضحية انفعالاتي كذلك، قسوت عليها وعلى مرضها وصمتها وعدم صراخها. لكنها يوم ماتت شعرتُ بروحي تستلني أو تريد الخروج مني ومن جسدي وماديتي وفتوتي. كان الخبر صاعقة مُرّة تجرعتُها فتقيّأت ما شربته يومها من ماء الحياة.

حتى حشيش المخدرات أصبح سبب صداع وتمزق لشبكة الجهاز العصبي. احتضرت إلى درجة الموت. فررت من واقعي وهمت في أرض الله الواسعة والشاسعة.

ـ كنت أهذي وأعبر الطرقات حافي القدمين بثياب رثة، بلحية وشعر أشعثين، أمشي كالمجذوب الذي تفجر بركان طفولة محرومة داخلَ عينيّ وحشٍ تحضّرَ للجريمة. متى عدتُ لحياتي الطبيعية؟ لا أدري كيف. إنما يومها وقفت أمام مقر للدرك الملكي في طريق قرية جنوبية:

ـ ماذا تريد؟ سألني الدركي هناك.

ـ أنا تائه. إنما أنا مبحوث عنه كذلك في مشاجرات ومخدرات.

استمر حجزي في مركز الدرك لخمسة عشر يوما. وكأنني أعوذ بنفسي من نفسي. لاخوف ولا ارتياب. كان الحجز معاملة طيبة. حذر، واستعلام، ومراقبة. كان سخرة وخدمات أقدمها للدركيين في سقاية أشجار الحديقة أو توصيلة تغذية... عاد الاسم بدل اللقب. عاد عبدالعاطي. توصّلوا ببرقية من مدينتي. عدتُ لها في لباس نقي ومظهر محترم رفقة سي علي، ذلك الدركي الذي أصبح أخًا لي. ما يزال يرسل لي السلام ويسأل عن أحوالي ويقدم لي المساعدات.

كان أبو ذرّ قاطع طريق ومهمّش مجتمعه، ودخوله في الإسلام كان معجزة فطرة وإنقاذا لها. الإسلام أمل المحرومين والمجروحين، وأملي بدأ بالتسليم بالقضاء والقدر وعدم رفضهما. لقيتُ عقوبة تخفيف. تعجّب الكل في قاعة المحكمة لها

وأصبحتُ الغريب عما كنته. يوم الخروج من السجن، عدتُ للحي الأول. بجوار الغرفة مسجد صغير رمّمَه المساكين لكي يختلوا فيه لمناجاة ربهم وللهروب من واقع قصدير وازدحام وضيق عيش واستفحال جهل. كان المسجد دائرة نور وسط ظلمة حالكة، بقعة طهارة داخل مستنقع سلوك البشر. لم أجد حرجا في ولوجه، وولوج مكان الوضوء للطهارة. أؤدي صلواتي مبلّلا ثيابي وأطرافي مع الناس. في البداية، كانت شعائر فارّة، لكنها بدأت تمتلئ كل حين بما تيسّر لإمام المسجد من أن يلقّنه لي. شيخ يسكن تاريخ الإنسان قبل أن يقف لإمامته في الصلاة. مدّني بفوطة لتجفيف ذلك البلل في أطرافي و ثيابي ووجهي، ودعاني للاحتفاظ بها. سألَ عن حفظي للقرآن والأدعية وكتب لي بعضها في قصاصات أوراق صغيرة. يدعوني لتناول صدقات الإفطار في رمضان ووجبات الكسكس أيام الجمعة. وقد تعلّق الابن اليتيم بأبيه الروحي وعانقه بكاء يوم أهداه جلبابا أبيض لكي يخصصه للصلاة.

بدأت أخرج كغلالة من قوقعتها وصيامها. أتدحرج في الخطو الثابت، وما عُدِم مَن رضي بقضاء الله وقدره. عملتُ حمّالا في سوق الجملة ثم في السويقة. احتجزت حيّزا مكانيا لأجرب البيع والشراء على رصيفها فأصبحتُ خضارا بلغة الناس والساكنة.

ـ وكيف كانت علاقتك مع السيد عبدالجواد؟

ـ الأشرطة الصوتية !

يتعجب فؤاد لهذا الجواب المختصر والمغلق والمبهم. يسترجع عبدالعاطي نفَسًا منتشيا بنصرة الحكي والسرد والتشويق. يعلم وقع هذا الجواب في ذهن فؤاد وذهن كل متلقٍ لمثله ممن حاورهم فسألوه. بقيت عينا فؤاد جاحظتان في وجه وقسماتٍ توزعت عليها ابتسامة الإخفاء للعبة الكلام. أدرك أنها ما هي بلعبةٍ بقدْر ما هي محطة تبني العلاقة وتجيب على السؤال في آن. ولعل بداية علاقة عبدالعاطي مع عبدالجواد بوزن بداية علاقة عبدالعاطي مع فؤاد، لكن أيًّا منهما لم يحدس المسألة مباشرة وبشكلٍ واعٍ.

ـ تغيّرت علاقاتي بعد الخروج من السجن، من إمام مسجد بالحي إلى جماعة المصلّين إلى مباشرة رد التحية والسلام بين الدروب وفي التجارة. تداول أشرطة صوتية كان بوابة عالم جديد. بدأت أتفقّه في الدين وأطوّر عبادتي وسلوكي ومعاملتي. عفوت عن اللحية، وقصصت شاربي، وأصبح عود الأرك سيجارتي والمسك عطري. بدأت عيش وألفة أفكار شيوخ كبار عبر دروسهم في الوعظ والإرشاد.

ـ والسيد عبدالجواد؟

ـ في صبيحة يوم خميس، وقد زامن منتصف شهر شعبان لتلك السنة، بدا رجلا حائرا، يذرع المسافة أمامي في السويقة ذهابا وإيابا. كانت السويقة غير ممتلئة بعد، وهي فرصتي للاستماع لأحد الأشرطة الصوتية. أظنه كان شريطا عن الصلاة وحكم تاركها. ألِف الجميع نشاطي وأشرطتي. الكل يعرف عبدالعاطي بأشرطته في السويقة. يخترقك سمعها بأمتار قبل أن تصل إلى مصدرها، وتعرف

أنه عبدالعاطي في مناخه الديني والأخلاقي. تقدَّم السيد عبدالجواد مرتابا، جزعا. استسمح في الكلام:

ـ السلام عليكم ورحمة الله. أستسمحك في طلب مساعدة وإيجاد حلّ لمشكلة طرأت لي هذا الصباح. لا أدري، هل انتشلت مني أم سقطت أرضا في سهو وعدم انتباه. هي محفظة صغيرة، فيها بعض النقود، لكن ما يهمّني هو الأوراق الموجودة معها. لاتهمني النقود، فقط أحتاج لاسترجاع تلك الأوراق وإن اضطرت لإضافة نقود أخرى عطاء لمن يجدها. هيأتُك واهتماماتك جذبتني لألاحظ فيك جدية والتزاما وربانية كبيرة.

دعوته للاستراحة على كرسي بجانب السلعة. طلبت منه الانتظار لأذهب وأنظر ما يمكنني فعله. غبتُ لنصف ساعة تقريبا قبل أن أعود والمحفظة في يدي بكامل محتوياتها. سُرّ السيد عبدالجواد لذلك طبعا. عانقني وأثنى على مساعدتي له. من يومها بدأت أخوة حقيقية بيننا.

ـ كيف وجدت الحقيبة المفقودة؟

ـ ربما الصدفة ساعدت على ذلك. لكنني أعرف خبايا السويقة وما يدور فيها. البيع والشراء في الخضر والفواكه هو الواجهة الظاهرة، أما ما خفي فهو أعظم كما يقال. أعرف المتسولين والنشالين والمجرمين وأصحاب الرشوة وأصحاب الغش والاحتيال، والعلاقات الاجتماعية وأشكال الفساد المنتشرة والمتنوعة الموجودة فيها وبجانبها. خلف السويقة هناك مقاهي شعبية، وكل مقهى معروف برواده

وزبنائه، ومجال السويقة حِكرٌ على جماعة نشالين يتزعمهم في تلك الفترة شخص اسمه الكيوي. ربما كنتُ شيخه في الانحراف لو بقيتُ في طريق الضلال، لكنه يحترمني ويعرف من أنا. حينما يمر في السويقة يقبّل رأسي وكتفي ويطلب مني الدعاء له بالعفو. كل المغاربة يطلبون العفو من الله يوميا ويستمرون فيما هم فيه.

قصدت السيد الكيوي وحكيتُ له ما وقع. طلب مني الانتظار. في عشر دقائق كانت المحفظة حاضرة بنقودها. حينما أرجعتُها للسيد عبد الجواد، أخذ محتوى النقود وطلب مني إعطاءه للمعني به، بينما رفضت أن آخذ منه مبلغا ماليا أراد تسليمي إياه. ها أنت آ سي فؤاد: نتعايش بالحلال داخل دائرة الحرام، عسى أن يغلب الأول الثاني.

كان يوما مشهودا. لم يكن فؤاد ليفكر في البحث عن جريدة تهتم بأخبار الفضائح والمحاكم. سرى الخبر بين دروب المدينة القديمة مثل خبر دخول رمضان أو خروجه برؤية الهلال. تصفّح عدد ذلك اليوم من ثلاثاء من شهر نونبر. في الصفحة الأولى عنوان عريض: (تورط مسؤول بنكي في اختلاسات كبيرة). إنما التفاصيل غير واردة. يدعو العنوان إلى النظر في الصفحة الثالثة. تذكر فؤاد أن الجريدة تجعل الصفحة الأخيرة لصورة مثيرة كل يوم لجسد أنثوي وألوان زيه الفاتنة. أطلّ على الصفحة الأخيرة، لم تُغرِه الصورة ذلك الصباح كما لم يغره التعرف على حظه في لعبة الأبراج والأوروسكوب. بحث عن الصفحة الثالثة ليجد التفاصيل الأولى للخبر: (اهتزت مدينة مكناس على فضيحة مالية جديدة. مدير وكالة بنكية يسطو على حسابات زبنائه ويقيم مشاريع في العقار والسياحة ويفر من البلاد بعد أن أغرق السفينة بركابها في الإفلاس. يبقى المصير مجهولا للسيد المدير وللودائع المالية للزبناء).

لا يعلم فؤاد كيف بدت له صورة أسماء وهي تصرخ وتنهار. عاد لتصفّح الصفحة الأخيرة من جديد، ولم يجد في ابتسامة النجمة السينمائية ما يطمئن تخمينه. رفع بصره إلى طاولة مقابلة فلاحظ أن الشخص الجالس فيها يتصفح نفس الجريدة. بدت له الصورة معروضة فيها، لكنه تبيّن أن رؤيتها في جريدة الآخر جعلتْها أفضل وأكثر إثارة. راودته ابتسامة مجهولة التفسير. سارع إلى إشعال سيجارة. كان دخانها مساعدا على استرجاع صورة أسماء من جديد. لم يلتقيا بعد ضجة

المقهى خارج المدينة. منذ مدة وهو يفكر في قدر علاقته بأسماء. في كل مرة تكون هناك مشاكل مرتبطة بها رغم أنهما لم يجعلاها علاقة متينة في صداقة أكبر. فيوم أرادت أسماء أن تصالح التاريخ مع ابن حيّها وتضمد جراحا عفوية في وقوعها، كان مشهدا دراميا وتلفزونيا تجلس فيه أسماء ورضيعتها فرح في مهدها الوردي في مقهى محطة بنزين مع فؤاد ابن حيّها. وكأنها احتمت بمهد الطفلة لكي تجعل للقاء قداسة وطهارة نية وقصد. لكن الصدف تشاء أن يدخل موسيو الحسين رفقة فتاة لأجل وجبة شواء بمطعم المحطة. كانت الصدمة متبادلة، لكن موسيو الحسين وبسبب سوابقه كان المتورط الأكبر فيها مع رفيقته الشابة صغيرة السن. يومَها برّرت السيدة أسماء بأنها فكّرت في مساعدةٍ لابن حيّها من أجل الخروج من أزمته الاجتماعية. والدليل أنها في مكان عمومي ومعها ابنتها. بينما لم يجد موسيو الحسين ما يستل به ملف تورطه مع شابة حسناء مثيرة بماكياجها ولباسها وتصغره بعشر سنوات تقريبا، خصوصا وأن صدى مغامراته يصل بدون دليل، لكن هذه المرة تأكدت كل الأدلة والإشاعات بما فيها ورطة الفندق الكبرى.

أن تكون عملية التذكر مثل بركان يتقد بحممه ويغلي بنيرانه داخل ذهن الإنسان، فذلك ما عاشه فؤاد للحظات جعلته يفضل المشي على البقاء جالسا في هذه الطاولة وبين يديه هذه الجريدة اللعينة. دوى صفير القطار الخارج من النفق وهو يعبر الجسر فوقه. وقف يتأمل المقطورات وهي تتتابع في التسلل كأنها هاربة من سكة تتلقف أثرها. أعاده المشهد ليوم انتظر أسماء فوق نفس

الجسر. تأمل المشاهد المفترضة. ازدحمت في ذهنه بين الماضي والحاضر، الذكرى والحدث القائم. جدّد داخل وجدانه ألف مبرّر للتعاطف مع السيدة أسماء، خصوصا وأن الخبر انتشر بين المكالمات ورسائل الهواتف. انتظر فؤاد مدة أيام قبل أن يصادف السيدة أسماء في زيارتها لمنزل العائلة بالمدينة القديمة. سلّم باحترام ودعا بالفرج وإبعاد البأس، كما سأل عن الأميرة الصغيرة فرح. لم يرد أن يضغط على الجرح. أعطى الابتسامة والتحية حقهما وواصل قصده في المسير. وتلك كانت بوابة جديدة، جعلت السيدة أسماء تزيد من السؤال عن أحوال فؤاد فتتضح لها آفاقه المتميزة التي جعلته يعيش مستقرا وبطموحات وعلاقات رفيعة.

اتضحت للرأي العام المهتم بأخبار الفضائح والاختلاسات تفاصيل ملف موسيو الحسين. بدا كبطل رواية أجنبية حيث لم يترك كرامته تهان في نهاية القصة، رغم أنه مجرمُها والمتورط فيها. تضاربت الأخبار والاجتهادات، بين بتّما وإسبانيا وآسيا. هو في كل مكان. هناك من رآه هنا أوهناك. تبدو على ملامح المتكلمين في القصة الدهشة والإعجاب. لم يكن اللوم ليصمد أمام تحيّتهم لبطولته وقدرته على الانفلات من قبضة المحاكين له، وكأنهم يمنّون نفسهم ويتمنون لو كانوا بدله في النجاة من قبضة عدالة، خصوصا وأن الحديث أصبح عن ملايير وليس عن ملايين أخذها معه. حتى فؤاد، هو الآخر وقع في فخّ هذه الفكرة، حينما كان مارّا أمام سينما كاميرا بالمدينة الجديدة، بتخيّل صورة موسيو الحسين

بشاربه الرقيق وبدلته الأنيقة وابتسامته الماكرة معلقة لبطل فيلم بدل صورة البطل لفيلم (بدون هوية) للممثل الأمريكي ليان نيسون.

هكذا كبُرت القضية وعجز المحللون عن التفسير مثلما عجز المسؤولون عن إيجاد حل. نسبوا لموسيو الحسين عشرات المشاريع، وجعلوا له عددا من المليارات، بل منهم من قتله وورّطه مع إحدى المافيات الإيطالية أو الروسية. لا يعدم الخيال وهو يعترش كراسي المقاهي ويلوك الكلام كشبح يستلذ بتمثل تشخيص عبقريته في إخراج متجدد عبر الألسن صباح مساء.

في نفس أسبوع الفضيحة، كان فؤاد قد عاد لتوّه من رحلة الأربعين يوما رفقة السيد عبد الجواد. رحلة الجماعة والذكر والدعاء والتعبّد. رافقه فيها إلى مدينة وزان حيث بقيت أسرة السيد عبدالجواد مع أهلها هناك، وتابعا رحلتهما ملتحقين بجماعة الذكر بإحدى شواطئ إقليم شفشاون المطلة على البحر الأبيض المتوسط. رياضة تقليدية في المشي والسباحة وركوب الخيل والبغال. صلاة جماعية في أوقاتها ونوافل وذكر ودعاء وابتهالات. جلسات موعظة ودروس في الجهاد والاستقامة.

وبقدر الصفاء الذي حققه فؤاد داخليا بقدر الآفاق التي رُسمت للذات والحنين للمجهول. فكلّما توغلّت نفسه في معرفة الطهارة الأخلاقية والسلوكية التي ستنخرط فيها كملاك من الملائكة، لا هي بأنثى ولا هي بذكر، كلما راوده تهديد داخلي يشعره بفقدانها وحرمانها وظلمها. لذلك كان تلقّيه لخبر وفضيحة موسيو الحسين كريح غربية جاءت مسرعة برطوبتها وحاملة لسحب ممطرة ورذاذ

سرعان ما زيّن للوجدان ما يجعله يحنّ لشيء ما، لمدينة ما، لاسم ما، لأسماء ما، لسقاية ما.

في شهر شتنبر من سنة 2012، سجلت مدينة أنطاكيا توافدا مهما للمواطنين السوريين النازحين من بلادهم. تلك كانت بداية مرحلة جديدة في تعامل النظام التركي مع دول الجوار والمنطقة. توازنات جيو استراتيجية شرحها مسؤول القسم الدولي في الحزب للحاج كمال. تدبير مرحلة سيتكلف كل منخرطي الحزب للقيام بمهام دقيقة من أجل نجاحه.

منذ ذلك الحين بدأت علاقات جديدة للحاج كمال. ممثلو حركات جهادية وقد استقروا مؤقتا بالمدينة. كانت مهمتهم تنسيقية فقط. وكانت المخيمات مشرعة لاستقبال النازحين من الحرب الأهلية التي بدأت ضراوتها تخيف العالم وليس الإقليم أو المنطقة فقط.

قلوب الأنطاكيين، بدأ وجع الألم التاريخي يمزق أحشاء وجدانها. أطلال مآثرهم التاريخية عادت لتتكلم وتنطق بأسرار الماضي والحاضر. حتى إن الصمت والظلام أصبحا مزعجين للبعض، خصوصا للحاج كمال. لكن الحاج كمال، منذ ذلك الحين استعان بمصباح الحزب ومصباح الحركة لكي يزيد ذلك الصمت الذي يسبق العاصفة، وتلك الظلمة التي لا تعِد بفجر سلام أو فرصة حمَام. التوجيهات التي تلقاها تلزمه بأن يجعل اختيار الحرب في سوريا هو اختيار الدولة و ليس الحزب، والحزب في نهاية المطاف جزء من الدولة وسياستها الجمهورية العلمانية. إنها مصالح فوق الأشخاص والأحزاب. الجل فطِن إلى كون اللعبة معقدة وتعِد بالخسران مثلما تعِد بالنجاح والانتصار.

في صباح شهر يناير من السنة الجديدة 2013، كان لقاء الحاج كمال بشخصية جديدة في مدينة أنطاكيا. سأل عنها الجهات المختصة بالمعلومات. كانت شخصية عبد الكبير العمري هي المعنية بهذه الاستعلامات. يجلس الحاج كمال فوق كرسي خشبي أثير ومغلف بثوب قطني رطب. يعشق هذه الزاوية داخل بازاره (السارسي). يستطيع من خلالها رؤية الآتين من مفترق الطرق والرصيفين داخل هذا الشارع الصغير الذي بدأ تجارته الأولى فيه في الزرابي والتحف القديمة.

لم يصدّق أن يكون هذا الداخل للمحل هو السيد عبد الكبير العمري:

ـ سي كبير عمري، تُراك تركيا وليس مغربيا. ال(بيك) تركي مائة في المائة.

يضحك السيد عبد الكبير وهو يصافح مضيفه ويعانقه بكل ثقة يديها في خطواته وكلامه.

ـ أنا مثل العملة، بواجهة تركية وواجهة مغربية. اعتبرني الآن تركيا معك في الحضور والعمل. اعتبِرني الآن كبير الإسطنبولي. أنا مستقر هناك في الجهة الشمالية الغربية من تركيا. وهذه المسافة التي حلقت فيها حتى أصل إليكم تدل على جدية ما نقوم به فيما بيننا.

تناولا كأسا شاي أسود منتوج في منطقة (ريز) المطلة على البحر الأسود. رتّب الحاج كمال لكي يكون اللقاء ثنائيا، بينهما فقط، إذ كلّف المساعد في البازار بمهمة في أنحاء المدينة. حضّر الشاي بتأن في التشايدانليك çaydanlik. كأسان

صغيران مزج فيهما الحاج كمال (الديم) مع الماء الساخن. شرح لضيفه طريقة التحضير والتقديم فيما اكتفى السيد كبير بتزكية ما يقوله الحاج بانحناءات موافقة ومستحسنة لكلامه و لما سمعه منه.

ـ الديم هو مستخلص الجزء العلوي من سخانة الشاي. وكما ترى فهذا الماء الساخن في الجزء السفلي يخلط معه فيعطيان معا مذاقا ساحرا.

بدت الكأس çay kupassi صغيرة جدا بين أصابع السيد عبد الكبير، ما فتح ابتسامة عند الحاج كمال لطريقة مسكه لها وتضايقه من سخونتها. بدت الكأس كذلك وديعة كزهرة أوركيدا صغيرة في يد خشنة تكاد تهشمها. ذلك كان شعور السيد عبدالكبير في دواخله دون أن يبدي ملاحظته للحاج كمال. وبقدر إتقان الطقس الاحتفالي لجلسة الشاي بقدر دقة الحوار والكلمات التي تضمنها بين الطرفين.

سيهمني كثيرا أن أرسل لك شبابا وأشخاصا تطوّعوا لخدمة عملية الجهاد في سوريا والشام. مهمتنا معا أن نؤمّن لهم الوصول إلى مخيمات التدريب والانخراط في الجماعات المسلحة شمال سوريا. طبعا مبدؤنا دائما معهم هو محاربة النظام الحاكم وليس الشعب السوري.

ـ أكيد.

ـ لكن مهمتي تنتهي في هذه المحطة. أنت ستقوم بتغطية المعلومات حول عدد المتدربين وعدد المخترقين لشمال سوريا واختياراتهم التنظيمية. تعلم طبعا أن كلا

منا يؤدي مهمة محددة، ومشاقّ الوصول إلى هذا اللقاء هي عمل كبير يدخل فيه الإعلام والسياسة والدعاية والتأمين، خصوصا تأمين مسار وصولهم من بلدانهم حتى الحدود التركية السورية. لن أطيل عليك، لنناقش الآن التغطية التجارية لهذا اللقاء.

ـ تعلم سيد كبير أن العملة تركية في الأداء. لائحة البضاعة المطلوبة وثّقتها في هذا الملف. تنقص بعض الأحجام في الزرابي. أما بالنسبة للتحف الأثرية فهي قليلة الآن. وصلتني اليوم هذه الأيقونة الخزفية. تعود لقرون خلت. انظر إلى اللازورد اللامع فيها، فريدة من نوعها. إنما هذه لا تُرْسَل مع البضاعة. عليك أن تجعلها معك وبرعاية خاصة، وعمولتها خاصة كذلك، فيما بيننا.

ـ ما العمل؟ رغم أنني أبرّر النفقات عموما فإنني لا أخفيك أنني أغامر فيها وسأغامر في اقتناء هذه الأيقونة. يبدو أنني أصبحت مدمنا على هذه التجارة، ما يشجعني على الاستمرار في العمل. مزادها سيتأخّر بحكم الاضطرابات القائمة الآن. لكن السوق السوداء متعطّشة لها.

ـ وهذه هدية مني إليك سي كِبير.

ـ أوه، شكرا حاج كمال. لِيكور إيدريم.

ـ هي عباءة أنطاكية، مصنوعة محليا: بليرين.

ـ بارك الله فيك. كنت سألبسها في عودتي إلى إسطنبول لولا الطقس البارد هذا الفصل.

في طريق العودة، استعمل السيد عبدالكبير بطاقة المرور الدولية المسهّلة للمرور. تشرف على شبكات التغطية أجهزة خاصة تعمل على الاستفسار والاستشارة مع الدوائر العليا. ودوائر الميدان مطمئنة على عمليات التغطية هاته وتعمل رهن توجيهاتها وإشاراتها.

السيد عبدالكبير على علم ودراية بنوع التقارير التي يجب أن يكتبها ويسلمها. وتعامله مع الحاج كمال واجهة سطحية لتنفيذ تعليمات أجهزة كبرى تنسّق بين البلدين. عاد إلى إسطنبول وفتح باب الشقة. المساحة كبيرة ومرافقها متعددة، لكن تجهيزاتها معدودة، ما يُشعره بفراغ روحي ووجداني. لا يدري لماذا يأتيه ذلك الشعور بأن نوارس شواطئ وسواحل إسطنبول تعرفه لدرجة أنها تأخذ لقمة الخبز والأكل من أصابعه و من حضن كفه. لا يدري لماذا يشدّه ظمأ طنجة، وكأن إسطنبول لا تخلو من إرواء، وكأن مضيق البوسفور ضيق فعلا ومختنق لا يضاهي مضيق جبل طارق المنفتح على المحيط. في لحظة انتشاء وسكر يعلّق مع نفسه على نفسه صامتا:

ـ هذا الارتواء خالٍ من نكهة ما.

هكذا كان قراره مقضيا بعد عشرة أشهر تقريبا. يوم قرّر الزواج بنعمة، اشترط عليها حدود الاتصال من التباعد بين الحياة الزوجية ومجال عمله.

ـ عملي متعدد ومتشعّب. أعمل في التجارة كما في بعثات أمنية تخدم بلدنا المغرب. لن ينقصك شيء في إسطنبول. تمتعي بالحياة والمال، ولكن لا تجعلي أحدا يقترب منك أو يطرق باب شقتك. شرط آخر، ولا تنزعجي منه كذلك. وكما تعلمين هذه طبيعة عملي: رجاء منك نعمة، أن تكتبي لي تقريرا يضبط الأنشطة التي تقومين بها يوميا. تعلمين، إذا نجحت في هذه التوجيهات ضمنت لك تعويضات مالية مهمة تدخل في نطاق عملي. ربما تعملين معي في بعض مهامه.

ـ هذه مسألة صعبة.

ـ لا صعبة ولا هم يحزنون. فقط بضعة أسطر تبين أين خرجت، أين ذهبت، أين جلست، الساعة والتاريخ، أريد أن أطمئنّ عليك حين سفري. قد ينقطع الاتصال الهاتفي بيننا لأيام، لذلك لا تخافي. أنا دائما في أمان.. كوني مرتاحة البال.

ـ ممم.

ـ هل يعجبك عرضي؟

ـ اتفقنا. المهم هو أن أسافر خارج بلدي.

ـ أسمعيني زغرودة نوقع بصداها جمعنا ونزعزع بها كورنيش طنجة بأكمله.

ـ سأعلّمك الآن المقايضة بالليرة التركية.

تضحك تعجبا وفرحا وهي تراه يخرج أوراقا نقدية بالليرة.

ـ اشتري هذه الساعة مني !

ـ كيف؟ ـ أطلبي ثمنها.

ـ أوكي. كم ثمنها؟

ـ ستة آلاف درهم.

ـ هل تريديني أن أؤدّي ثمنها بالدرهم أم بالليرة؟

ـ بالليرة طبعا.

ـ سقطتُ في الامتحان.

ـ انتظري. 6000 آلاف درهم تساوي، تساوي، تقريبا 2156 ليرة. أوكي.

ـ طيب، علبة سجائر مارلبورو كم؟

ـ 11.5 ليرة.

ـ هاك ثمنها.

مرّت تجربة العمل في المؤسسة التعليمية الخاصة كاختبار لحسن التنفيذ والسلوك والاستيعاب لتوجيهات الإدارة التربوية. استطاع فؤاد أن يكسب احترام طاقم العمل عموما. كما قام باجتياز اختبار السياقة والحصول على رخصتها مثلما اجتاز امتحانا في المعلوميات الأساسية.

هكذا لم تمر سنة حتى أصبح شخصية جديدة. إنما بقيت علامات الاستفهام مطروحة في ذهنه. فبدرجة الغدق عليه بإكراميات وجعل راتب شهري له، ولو أنه لم يتجاوز أربعة آلاف درهم في البداية، بدرجة التساؤل حول إقحامه في عالم الجماعة الطقوسي في الزاوية أو في المعسكرات المغلقة للتكوين المذهبي. هذا المذهب الذي لم يستبِن جذوره ولا نسقه العام. مرة تكون توجيهاته سماحة وعفو ورحمة وتعايش، ومرة يجدها صرامة ومواقف سياسية أو تحذيرية تجريمية. شعور عام لم يتركه يستريح كلما فكر أو حاول أن يفكر ويفهم ما يفكر فيه.

في آخر مرة، وهو راجع من خلوة الفيلا بإحدى شواطئ إقليم شفشان، طلب منه السيد عبدالجواد أن يوصل أسرته إلى مدينة مكناس. شعر بأمر خفي يقع. لم يتساءل عنه. ترك الأمور تقع كما أريد لها. سيكون سائق الأسرة في رحلة العودة، وستكون زوجة السيد عبدالجواد بخمارها جالسة بجانبه. سيخضع لامتحان أسئلتِها الأنثوية. رغم أن الخادمة بالغة لسِن الرشد وجالسة بجانب ولدي السيد عبد الجواد في المقاعد الخلفية، فإن ذلك لم يمنع السيدة من اختراق العالم الخاص للسيد فؤاد الذي أصبحت تناديه سي فؤاد.

ـ تعلمْ، لأول مرة يجلعنا سيدي جواد نسافر مع شخص غيره. يبدو أنك عزيز عليه و يضع ثقته فيك. لكنني أتساءل عن هذه الكثرة من الأشغال التي تجعله يغيب عنّي أنا والأولاد. وتعلم أن المرأة لا ترتاح حتى يكون زوجها بجانبها.

يتابع فؤاد كلامها ويرد عليه بمختصر العبارات والكلمات. يستحسن ثناءها على أخلاقه و كلامه. يوصل العائلة إلى فيلا سكناها ويرفض الدخول للاستراحة من عناء السفر وتعبه. إكرامية السيدة اشترطت عليه فيها ألا يخبر بها أحدا حتى زوجها. من سيشاركه رزمة الأسرار التي أصبحت موزعة داخل كيانه وفؤاده؟ أسرار من جهة السيد عبدالجواد، وأخرى من جهة الجماعة التي يختلي معها في طقوس العبادة وأشياء أخرى، وثالثة في توصية زوجة السيد جواد، ورابعة في لقاءاته المتجددة مع السيدة أسماء زوجة موسيو الحسين الهارب بما معه من نقود وتبذير؟

يحنّ إلى سيجارته التي انقطع عنها لأيام عدة. الساعة تشير إلى التاسعة والنصف ليلا. أقرب مقهى مفتوحة ومريحة كانت بساحة الحديقة أمام القصر البلدي ومحكمة الاستئناف. يرشف قهوته السوداء المنعشة للروح والباعثة للذاكرة والمنشطة للفؤاد. تذكّره كلمة المحكمة بتجربته المؤرقة في السجن وبما وقع قبلها وخلالها وبعدها. يتناول سيجارة ثانية فثالثة. يسائل نفسه وكأنه أحسّ بعطش دفين لم ترتوِ الذات به ومنه وله.

ـ لِتكنْ ليلة منعشة للروح والفؤاد.

سيارة السيد عبد الجواد الراقية، ورزمة أوراق نقدية متوفرة، بعضها سرّيٌ للغاية. لماذا لا أجعلها سريّة في الإنفاق وانتهى الأمر؟ هكذا ألِف سؤاله وجوابه فجعلها ليلة حمراء بمقصف بيرّتها وعشائها ورقص علبتِها. والنقود تجلب الحشود. لكن حشده كان فتاة جميلة رأت في محيّاه الشاب المكتمل والناضج والجدي، ذاك الذي يحسب لخطوه ونشوته ألف حساب فتكون رقصته متزنة وضحكته محدودة وتحيته محترِمة. يتخذ من وسط ساحة الرقص نقطة استدارة لولبية لامتناهية، مرة بكأسه في يده وكأنها مشعل العروج إلى أعلى، ومرة بإشارة سبابته وكأنه يمزج هذه في تلك، العبادة والشطحة والخمرة ولازمة الدعاء وإيقاع الموسيقى.. يستحضر بيت شعر صوفي للحلاج، حفظه شيطنة:

وسكرٌ ثم صحوٌ ثم شوقٌ وقرب ثم وفر ثم أنس

كان فراق الصباح بينهما ذكرى ليلة رائعة. تعجّب من قدرتِه الجنسية وممارسته لها. فسّرها بفترة المعسكر الروحي. تساءل عن هذا التجاذب بين الروح والجسد، لم يجد جوابا أو لم يبحث عنه. خرج من الفندق مستحما ومتناولا لفطور مكتمل. أوصل السيارة لمرأبها قرب المدينة القديمة وجعل المفاتيح معهودة للمستخدم في قيسارية الذهب. إجازته مستمرة لخمسة أيام أخرى. سيرى فيها أسرته وقبلها سينام بعمق طفولي خلال ما تبقى من ظهيرة ذلك اليوم.

هكذا تحوّل التوجس إلى تأنيب ضمير بسبب ما يشعر به مما اقترفه من تناقضات. لا يستطيع تفسير حصولها كما لا يستطيع الفكاك منها. تناقضات تعاش كما هي، وسيحتاج لما يأتي من الأيام وغرائبها لكي يميز بعضها عن البعض

الآخر. كلما فكّر في تعليمات الزاوية ودروس الفيلا، تلك الأخلاق المثالية في الاستقامة، وذلك اللباس الذي لا يتعدى مواصفات لباس الصحابة الكرام في أيام مجدهم وعزّهم ونصرتهم لدينهم، وذلك الصوم من كل شيء إلا ما كان من جهاد يدخل إلى الجنة، وخير الدخول البطولي الاستشهاد في سبيل الله. كل هذا جعل الطفل الداخلي يخاف مما سيأتي فيلجأ للّعب بما أوتي من الحياة وأشيائها ومتعِها، حتى من الغناء والرقص.

يتذكّر أنه حينما غفا لساعة أو ساعتين بالفندق وبجواره ريم، تلك الفتاة المسماة على تسمية الفندق، فندق ريم، اختلطت بذهنه وفي حلمه جذبة الزاوية العارجة إلى السماء بالتكبير والتأليه مع رقصة العلبة المدخلة في دوامة الأضواء والحركات والأجساد والصرخات المثيرة. لحظتها شعر بأنه امتلك الدين والدنيا. لكنه فكّر في العيون المتجهّمة والمتربصة بكل منافق في الدين والعهد المأخوذ بين أفراد الجماعة. بعضها متعطش للجهاد لدرجة البكاء والتمني في الالتحاق بالإخوة المجاهدين في الشرق. يندهش فؤاد لكل هذه الزوايا وهذه الأسرار غير المتقاطعة فيما بينها. تزداد ذاته في التمزق الداخلي لكي تجعله يبحث عن التوازن والمسافات في كل ما سيأتي.

كان يوم خروج السيد عبدالعاطي من السجن احتفاليا. كان المقترح لشكل القيام به هو فؤاد، وكان الضيوف فيه كلٌّ من السيدين عبدالجواد والشيخ حميد. حجز لصديقه السيد عبدالعاطي بفندق لا توجد في مرافقه حانة أو علبة ليلية، جعل الاستضافة لوجبة الغداء في مطعم حراء حيث التسمية والديكور يناسب ملتقى الإخوة وروحهم المشتركة. على الساعة العاشرة صباحا انتظر فؤاد صديقه المحرَّر من السجن. صادف يوم الجمعة. أوصله إلى بهو الفندق وانتظره حتى استحم واستراح وغيّر ثيابه بأخرى أحضرها له بكامل متطلباتها، حتى ما كان من العطر المبارك بعبق المسك.

وجدا مسجد الصلاة الذي اختاراه مملوءا ما اضطرهما للجلوس فوق حصيره وسط الطريق الذي تحوّل لساحة مسجد يؤدي فيها المصلون صلاة الجمعة. أدى ركعتي التحية وجلس بجانب السيد عبد العاطي. التفت جهة اليمين فتذكر بأنه يجلس في مفترق طرق بين مسجد النور وفندق ريم ومطعم الأهرام. هناك في الفندق كانت لياليه الصاخبة. وهناك في المطعم كان تناوله قبل ثلاثة أشهر خلت لوجبة غداء مع السيدة أسماء. وهنا في المسجد بدأ السيد الإمام خُطبته بما هو معهود من مقدمات، لكنه ركّز في صلب موضوعها على ما يقع في البلاد الإسلامية وما يجب على المسلمين محاربته والجهاد من أجله. تكلم السيد الإمام عن الكفار وأشدهم عداوة للإسلام. لعن الشيعة والصهاينة كما لعن النظام السوري ودعا لإزالته وإزالة كفره الجاثم ظلما على رقاب المسلمين بسوريا. وبينما

رفع المصلون أكفهم تضرعا في الدعاء الذي يباركهم به السيد الإمام والذي يلعن فيه الكفر والكافرين قام أحد الجالسين أمامه مستنكرا ورافضا الاستمرار في الدعاء كما الصلاة. اعتبره البعض مجنونا أو أنه هرب له المخ بتعبيرهم فيما بعد. بينما قطّب بعضهم في وجهه لوما أو خوفا منه، لكنهم لم يقدروا على قول شيء التزاما بالأمر ـ النهي: من لغا فلا جمعة له.

كان فؤاد مطأطئ الرأس خاشعا مع الدعاء، وكان السيد عبدالعاطي مرددا له بصوت يزداد جهورية: آمين، آمين.

فيما بعد، أَسَرّ لصديقه فؤاد بأنه ينوي الالتحاق بصفوف المجاهدين في الشام وبأن رؤيا الاستبشار بالجنة حضرته قبل أيام من خروجه من السجن.

كانت زيارة فؤاد لتركيا مفاجأة لأهله وأصدقائه. استغرقت مرحلة تعديل شهادة حسن السيرة مدة لا بأس بها. لكنه استطاع خلالها أن يحصل على جواز سفره وأن يسجل هويته في البطاقة الوطنية وجواز السفر كمستخدم في مؤسسة تربوية خاصة.

كانت الدعوة من الحاج كمال. فبعد ثلاث سنوات ونصف تقريبا من التعارف، وبعد غياب السيد عبد العاطي الذي طال دون وصول خبر عن وجهته التي اختارها أو اختارته، كان حضور فؤاد لاجتماعات الثلاثة وقد أصبح مألوفا وداخلا في حلول التنسيق بين أفراد المجموعة. وبحكم كون الشيخ حميد والسيد عبد الجواد الذي عاد من عمرته الثالثة، منشغلان بمشاريعهما داخل المغرب، كان اختيار الحاج كمال لفؤاد لكي يزوره في تركيا ويقترح عليه مشروعا تجاريا لابد أن يؤهّله له إن أراد النجاح فيه. زار في بداية رحلته إسطنبول ثمّ أنقرة، وكان حطّ الرحال بأنطاكيا موطن الحاج كمال.

كان تعريف المعالم الأثرية عبر المدن التركية برؤية الحاج كمال وقراءته للتاريخ والعمران والأحداث والشخصيات. أوقفه وسط ساحة وأشار لاتجاهات المآثر والمعالم. المسجد الأزرق الذي خرجا منه، وآية صوفيا الذي سيلجان فضاءه ومتحفه. هي فرصة الحاج كمال لكي يتحدث عن مجد الإسلام وتفوقه في العهد العثماني على النفوذ المسيحي المتراجع.

يتابع فؤاد مضيفه ويتأمل بعينيه هذا التنوع البشري والهندسي والجمالي الذي تزخر به إسطنبول. يتمنى لو أنه كان يعرف المدينة من قبل، لو أنه يستطيع التجوال بحرية بمفرده. ما يراه من شباب وشابات متحررين ومتجولين أثار حنينه إلى شبابه وهو في مناخ تغطية الحاج كمال السياحية والتعليق فيها على ما تستقبله حواسه قبل ذهنه.

ـ قصة آية صوفيا تشبه إلى حدٍّ ما قصة حزبنا حزب العدالة والتنمية. شوّه البيزنطيون صورة محمد الفاتح وصورة الإسلام. هرب الناس إلى دير آية صوفيا، في هذه البناية أمامك. كانوا خائفين من دخول الإسلام إلى مدينتهم. دخل محمد الفاتح المدينة وتوجّه مباشرة إلى آية صوفيا، خاطب الصغار والكبار:

ـ أنتم آمنون على أنفسكم وعلى أموالكم وعلى دوركم. اذهبوا فأنتم طلقاء. حزبنا كذلك يعرف تشويها لرسالته وكأننا نريد القضاء على الحياة والتطور. انظر سيد فؤاد، ما تراه من بهاء نظافة وطُرق ونظام هو بفضل عمل الحزب هنا بالمدينة. هي الآن قلب الاقتصاد والمال والسياحة والحمد لله. للأسف ما يزال الغرب يلوك كلام الماضي ويحنّ إلى استرجاع القسطنطينية بعد أن أصبحت إسطنبول. نحن نعيش الحاضر والمستقبل سيد فؤاد. مرحبا بك في تركيا.

حين زيارتهما للعاصمة التركية، يبتسم فؤاد لمشهد الحمام في ساحات أنقرة. يذكّره بساحات الرباط عاصمة بلاده المغرب. لكن ابتسامته كانت لطفل يجري بين أنحاء الساحة وهو يحاول القبض مرحا وتخيلا على رفرفة الحمام المتراقص في

فضائها. لحظتها شعر بالاستئناس وبأن العالم كله متشابه. لكن أفكاره بقيت ببساطتها بحيث غيّر حديث الحاج كمال موجتها:

ـ سنذهب الآن من ساحة (جارشة كزلاي) لزيارة عالم (أرمادا مول).

هكذا تمتع السيد فؤاد برحلة موفقة شاهد خلالها ثلاثة مدن رئيسية وتاريخية في تركيا. وبقدر الزيارة بقدر التعرف على أشخاص جدد التقى بهم الحاج كمال وعرّفهم خلال ذلك على الشاب فؤاد.

في بعض الأحيان، يراجعك الذهن حينما تخلد إلى النوم. ينتظر استراحة الخلايا لكي يعمل ببرمجته الداخلية فيذكّرك بما نسيته أو يحل لك ألغازا مبهمة عليك أو يفك لك شيفرات مطلسمة. تذكّر أنه في لحظة من جلوسها في مقهى بمنطقة (سيركجي) لتناول كأس شاي بإسطنبول، التقط بصر فؤاد طيف أنثى داخل مقطورة الترامواي المتجه لعبور مضيق البوسفور. تخلّل ذاكرته تشويش خفيف لمْ يستبِن كنهه. الناس تتشابه عبر العالم. هكذا كان تعليقه دون أن يحدس أي تشابه هذا الذي يراه، وبين مَنْ.

يجول بعينيه الفضاء كل مرة ويستحسن الابتسامة للألوان الجميلة التي تشكل الأشياء والشوارع ووسائل المواصلات كما اللباس.

ـ الألوان جميلة هنا حاج كمال.

ـ فعلا. هذا سرّ تركيا. ألوانها جميلة جدا في كل شيء. إن شاء الله سيكون لك اختيار المناسب منها في مشروع التجارة الذي ستشرف عليه في بلدك المغرب. عسانا نجعل لبلدينا رابطا روحيا أقوى مع هذه التجارة.

يبتسم فؤاد لقدر أعمى جعله محور التقاء الأسرار والمتناقضات. يغيّر من وضعية وسادة نومه التي لم تطاوعه للسكون الذهني. كانت الأصوات الداخلية كضجيج فيلم متداخل الأدوار والمشاهد. يعاود ما ذكره له الحاج كمال فلا يجد من تفسير أو فهم لخيوط الحياة وقوانينها. يفتح عينيه في ظلمة تسود الغرفة، يتذكر بأن المكان بتركيا وليس بمكناس. تستهويه كلمة أنطاكيا قبل أن يستفهم عن أي معنى لها في اللغة التركية أو غيرها.

سبق له أن سمع بالزواج العرفي، لكنه لم يسبق له أن تعرّف على زواج بالتعاقد الشرعي، ولا يفكّر في معرفة الفرق بينهما. المهم أن أمّه وأباه تزوجا على سنة الله ورسوله، وهؤلاء الذين تعرّف عليهم يبحثون عن شرع آخر. إلا الحلال في الزواج فهو لا يفكر في مغايرته. لكن، أن يكون الحاج كمال قد عقد على امرأة بالمغرب وبمباركة الجماعة، فذلك ما استغرب له.

ذكّره الحاج كمال بأن الشهود كلهم عدول ولهم مصداقية إبرام الاتفاق والعقد مثل التجارة التي تستدعي شهادة ذوي عدل أو عقد مكتوب بين الطرفين. والإمام الكبير الشيخ يوسف القرضاوي ومن لا يعرفه، ألم يتزوج بالأولى ثم الثانية؟ جزائرية ثم مغربية؟ ألم تبارك له الجماعة ما عقده واتفق عليه؟ هي روح أخوة جديدة تجمع بين شعوب الأمة الإسلامية، كما عبّر عن ذلك الحاج كمال،

أينما وليت قلبك تجد من تحب وتعاشر. يتخيّل فؤاد أمّه وأباه من جديد، ويصرخ بين نوم ويقظة رافضا وضعها في صورة هذا التعاقد الجديد.

يستدير إلى جهة جسده اليسرى، الدولاب البني المغلق وقد بدا منه ثقبان في بابيه، مستعملان للقفل والفتح طبعا، كعينين تتربصان به. اضطر للفرار بذهنه إلى ذكرى أو تمنٍّ آخر يبعده عن توتر تفكيره. استجمع الابتسامات التي التقطتها عيناه خلال هذه الرحلة بين ثلاث مدن تركية. استحضر بعض ملامح الجمال الموزعة بين حسناوات الشوارع التي عانق فيها عطر الهواء التركي. تخيّل رحلته متحررة من رفقة الحاج كمال. لو أنه كان بمفرده لاستطاع أن يتعرف على إحداهن والتجوال معها، وربما تقبيلها بحرارة. تكفيه هذه الأمنية.

هل يسعفه الهاتف في التواصل والتعارف الافتراضي في سهاد ليلته هاته؟ فتح محرك البحث غوغل ونسي أن يكتب الموقع المفضل عنده للتواصل إذ سرعان ما زاحمت ذهنه عبارة: زواج المتعة، فوضع حروفها في خانة البحث وبدت له أول صفحة في موسوعة ويكيبيديا. اختلس فكرة جديدة قَطبا في ظلام الغرفة وكأنه وجد وصفة مشهورة يعرفها الجميع. ليته وجد غيرها. لكنها أسعفته في بداية قراءة عنوان: الزواج في تركيا:

يمنع تعدد الأزواج في تركيا، ولذلك يلجأ البعض إلى كتابة عقود سرية، رغم أنها شرعية لكنها مخالفة للقانون المدني الذي وضعته الدولة العلمانية. يفوق عدد المتزوجين بأكثر من واحدة، المليونين ونصف المليون تركي.

يستغرب فؤاد لهذا العدد، ويستحضر مضيفه الحاج كمال متسائلا حول سبب زواجه الثاني في المغرب بدل بلده تركيا. لا يجد جوابا بقدر ما يحضره سؤال آخر: ربما تجارته في المغرب أو إن أصحابه هم الذين عرضوا عليه هذا الزواج.

ـ ماذا لو كانت لي زوجات متعددات؟

يغمض عينيه فيتخيّل وجوه من يعرف منهن. يجعل أسماء في قائمتهن، ويستحضر أخريات. يندهش لرؤية صفحة وجه زوجة السيد عبد الجواد ضمنهن فيطرد الصورة والتصور. ويعلّق على نفسه:

ـ مجرم أنت في حلْمك يا فؤاد.

يتذكر آخر حوار له مع صديقه عبد العاطي وكيف كلّمه عن وعود الجنة وعن حياة الجهاد وما توفّره الجماعة هناك. أصبح هذا الهناك هنا. إنه الآن في أنطاكيا. وكما أخبره الحاج كمال فإن الحدود السورية قريبة جدا. فقد تجد بعض المقاتلين وقد جاؤوا لأغراض أو مهام في شوارع أنطاكيا قبل أن يعودوا أدراجهم لجبهات القتال ومخيماتهم العجيبة. لكن الغريب هو تساؤله عن سرّ سهولة تنقلهم بين بلدين ووصولهم إلى جبهة القتال وقد أتوا من دول متعددة.

ينظر إلى ساعة الهاتف يجدها الثالثة صباح. لابد من النوم من جديد، فغدًا صباحا ستكون رحلة عودته إلى إسطنبول قبل أن يحلّق راجعا إلى بلده المغرب. تسعة عشر يوما كانت تجربة رائعة في حياته. استطاع خلالها أن

يتعرف على تركيا التي تبهر أمّه بمسلسلاتها التلفزيونية. لكن، يبدو أنه هو الآخر بدأت تسحره روائح بهاراتها وجمال مدنها وناسها. ما العمل؟ ربما سيبقى بمفرده ليومين قبل أن يذهب في رحلة العودة.

تُحاصَر السيدة أسماء وتنزعج بوضعها المقلق داخل مجال العمل. بدا الحرج في الاجتماعات التي احتاج فيها المسؤولون إلى اتخاذ إجراءات جديدة أكثر صرامة مع المستخدمين والمديرين للوكالات البنكية. ورغم كون آخر اجتماع تحدث عن أرقام وليس عن أشخاص، إذ أن العشرات من الخيانات المهنية تسجل شهريا عبر فروع البنك الذي تعمل فيه، رغم أن المدير العام لم يذكر اسم زوجها الحسين، إلا أن إجراء إبعاد كل من لهم علاقة بهؤلاء الخائنين عن أي تواصل مباشر مع الزبناء قد خلق عندها مغصا وانهيارا عصبيا داخليا اضطرها بعد الاجتماع لأخذ رخصة مرَضية ليومين.

هكذا أصبحت وظيفتُها مكتبية وانتقلت من مقر عملها القديم إلى آخر بعيد عن المركز. تحوّلت فيها ظروف الحياة وشحبت معها ابتسامة السيدة الأنيقة كوردة ذبلت من فرط غياب لأشعة وسقاء. ستنزوي السيدة على نفسها وتهتم بتربية بنتها، لكنها كذلك ستمنطق الأمور وتحدد المسؤوليات فيما يجري. لا يمكنها أن تردّ اللوم على نفسها وإلا سحقها الأمر، كما عبّرت عن ذلك أمها التي ساندتها في محنتِها.

لا تدري لماذا بدأت تشعر بالأمان في مكالمة السيد فؤاد، وتهتم بجديده وتشجعه على المضيّ قدما فيما يعده به القدر. تتابع عمله بالمؤسسة التعليمية

وذلك التعامل التفضيلي المجعول له فيها، كذا رحلته إلى تركيا التي لم تستطِع كبح مشاعرها في تمني أن تكون معه فيها.

ـ بعض الأحيان تتمنى شيئا جنونيا ينقذك من هذا الواقع ولو كان للحظات، حتى لا تُجنّ بالفعل. أعذرني على تعبيري فأنا أحتاج فعلا إلى عالم جديد. لقد سحقني الحسين بما فعل من قبل ومن بعد.

هل أصبح فؤاد واسطة العِقد في هذه الحكاية؟ كيف سيجد نفسه بين تقرّب أسماء، وبين عرْض زوجة السيد عبد الجواد عليه الزواج من ابنة خالتها بنواحي وزان؟ وبين رسائل أبي ذر الغفاري الذي استعاد لقبه حين التحاقه بجبهة القتال؟ وأشياء أخرى تدخل في توازنات شخصيتِه الداخلية كما يراها هو ويعيشها.

لا ينسى فؤاد صديقه الخياط بالمدينة القديمة. فكلما سنحت له الفرصة لكي يستريح من حركيته الجديدة، ذهب للجلوس بجانبه وتقاسم الشجون والمهدئات المتبخّرة مخدرا مدخّنا في سبسي الكيف أو لفافة حشيش. يعتبر راحته في هذه الجلسة.

ـ الله. أشعر بالسعادة والراحة التامة حينما أجلس على هذا الكرسي بجوارك وسط عبق هذه المدينة وسحرها.

لكن ذلك الشعور سرعان ما تخرجه من وسادة أحلامه وأمانيه رنّة هاتف تضطره لمغادرة الجلسة والاستمرار في حياته الجديدة. وبين مروره أمام باب

المسجد الكبير وخزانته وخروجه من قوس باب عيسى، تحضره الشخصيتان الرئيسيتان المتجاورتان في كيانه. هذا الصقر الحر بين أسوار مدينته العتيقة سيتكبّل من جديد بقيود غير مرئية، لكنها خانقة لأنفاسه وروحه وفطرته. يتذمر من اختناق الشوارع بالضجيج والتلوث، فيفرغ هذا في ذاك ويساهم هو الآخر فيهما. يضغط على زرّ الكلاكسون فيدوّي معه صفير يفرغ توتراته التي يعبّر عنها دون وعي:

ـ الله يلعنها عيشة.

يستدير جهة سائق أو سائقة سيارة بجانبه فيحوّل تجهمه الداخلي إلى ابتسامة ديبلوماسية باردة. في بعض المرات تجلب له مثيرات أو شكوك، فتصبح امتحانا للتواصل وعفوية قدره اليومي. قد يحدث صديقه الخياط عن بعض مغامرات. كيف تدفعه الرغبة في مقابلة ما للطمع في التعرف على صاحبة السيارة فيتبعها ويلمّح بضوء سيارته لتبدأ لغة إشارات ضوئية كما في البحرية. قد تنجح العملية بركن السيارتين بجانب رصيف شارع جديد، وقد تبقى مجرد لعبة يجعل كل واحد منهما الآخر طامعا وضائعا بهروب طيف العجلات دون قدرة على اللحاق بدخانها المنبعث منها.

ما الجديد الذي سيعيشه داخل حياته بمدينة الدارالبيضاء؟ سؤال اشتركتْ معه أسماء في مناقشتِهِ وسبر أسراره وأغواره. أسماء التي تباعد وجدانها عن كل أمل في استرجاع حياة سوية جديدة. زوج غائب وفارٌّ من العدالة، وابنة محرومة من حنان أبوة وحضور متوازن لها في حياتها. كلما أتى الليل وأطفأت نور مصباح السرير، كان الدمع مسارعا ليسبح في يم عينيها. اشتعلت حرقة الغياب والحرمان، واحتجت ذات امرأة على كل ذلك. ها هي في الواحد والثلاثين من عمرها، في ذروة الظمأ والعطش ووهج الشوق والشهوة. لكنها شجرة بدون سقاية. فهل ستموت متيبّسة؟ لا أحد يشاركها شجنها حتى يخفف عنها وقعه وألمه إلا ما كان من بوحها الذي تُسِرّ به لفؤاد إذا سنحت لها الفرصة. وكأن فؤاد هو بئر روحها الذي ستصرخ في عمقه حتى تفرغ وتفجّر، وحتى لا يسمعها سواه فيردد صداها وينعشها برطوبته وهدوئه وصمته الممتلئ بماء عذب هو إكسير شاربه.

ـ أنت زهرة في ريعان أنوثتك. سيعوضك الله بما هو أفضل. صبر جميل. اسقِ روحك بماء الإيمان ولا تنسيْ دعاء الرحمن.

وصية أمّها لها.

"بسم الله الرحمن الرحيم"

" أخي في الله"

"أكتب إليك هذه السطور وأنا في طريقي إلى الجنة. كلّ يوم أدعو الله أن يجمعنا وإياكم في رياضه العطرة. الآن وجدت هدفي من الحياة، ولم يكن ذلك الجري وراء الدنيا سوى سراب يخدعنا به الزمن.

أدعو من الله تعالى أن يهديَ شبابنا لكي يلتحقوا بجبهة الجهاد ورفع راية الحق والنصرة لله تعالى."

"والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"

كانت رسالة مقتضبة، سلّمها الحاج كمال للسيد فؤاد. كان لقاؤهما هذه المرة بمدينة الدار البيضاء حيث اكترى فؤاد محلا تجاريا وأسس بمعية شركائه والمساهمين الحقيقيين في المشروع شركة للاستيراد والتصدير.

جمع اللقاء من جديد السيد عبدالجواد والشيخ حميد والحاج كمال والسيد فؤاد، إلى جانب فريق عمل محلي بالعاصمة الاقتصادية وحضور بعض المسؤولين ذوي مراكز قرار إداري وتجاري مهمة. سيكون فؤاد هو المشرف الإداري على المشروع والموقّع على العمليات التي تتم والمخبِر لإدارة الشركة بجميع الصفقات والعمليات.

بشارع الجيش الملكي، أصبح لفؤاد سكن صغير في شقة تطل على البحر والميناء من شرفتها في الطابق التاسع عشر من العمارة الكبيرة المجاورة لمثيلاتها.

يستغرب فؤاد للرسالة ويستفهم عن طريقة تواصل ولقاء الحاج كمال مع صديقه السيد عبدالعاطي الذي استغنى عن اسمه بلقبه القديم أبي ذر الغفاري.

كانت العمليات التي تمرّن عليها دقيقة ومتقنة. فسّر له الحاج كمال بأن التجارة إذا اتبعت طريقها الشفاف ستبور في الضرائب والعراقيل، لذلك بيّن له بأن سلعا ستكون ظاهرة وأخرى ستمرر معها عبر الجمارك دون أن يحدث ذلك مشكلا. كان من بين المبررات أن بعض هذه الأرباح يعطى مساعدة للاجئين السوريين الذين يعانون من قساوة الظروف، وكذا للمجاهدين الذين يضحون بالغالي والنفيس من أجل رفع راية الإسلام.

أصبح فؤاد داخل بنية التحليل الذي سمعه ويسمعه من الحاج كمال والآخرين. السنوات التي قضاها معه واشتغل فيها داخل مؤسساتهم ورافقهم في سفرياتها وخلوتها، كلها جعلته واحدا منهم. لكن فؤاد داخل كل ذلك حافظ على ذاته الخاصة التي تعيش تناقضات التوافق والاختلاف مع الجماعة. قد تأتيه لحظة يحنّ فيها إلى جلسته بجانب الخياط بالمدينة العتيقة بمكناس وقبالته باب مكتبة الجامع الكبير والسقوف الخشبية التي تجعل الممرات باردة ومظللة بين الدروب وأطياف الناس الأبرياء في أمانيهم وطلباتهم اليومية. هذا الحنين الذي يقارنه مع تعقيدات الحياة الجديدة وما تتطلبه من توازنات يكون على حساب صدقه

الداخلي مع نفسه أولا. هذا الصدق الذي يغيب فتغترب معه الذات وتشقى الروح.

وتنكشف أسرار التجارة فتكون غطاء لعالم آخر وسياسة أخرى يندهش لها عقل فؤاد لكنه يستوعب الفهم الذي يأتيه منها. كان المستودع الذي اكترته الشركة مخبأ هذا المنطق المطلسم للعمليات. تسلُّم البضاعة المشكَّلة من الألبسة تارة أو من الأواني التركية تارة أخرى، فرز الصناديق التي لا تخرج للتوزيع على المحلات وعلى المتعطشين للتجارة في البضاعة التركية الجديدة على السوق، كلها عمليات بيّنت للسيد فؤاد سرّ هذا الائتلاف والاتفاق والمحبة التي تجمع بين أطرافه. في لحظات من القلق والتوتر قد يكون هذا هو موقفه وحكمه. لاشيء كان بنية صافية. هناك مصالح متبادلة وأغراض مطلوبة في التلبية.

كانت بضاعة الألبسة صافية في عملياتها، لكن بضاعة الأواني البلاستيكية أو الخزفية تضمّنت سرّ الحكاية. عشرات القطع الأثرية يتم صبغها بألوان الأواني ووضعها داخل صناديقها الخشبية ملفوفة في قش اصطناعي. تنام مثل أرواح الشعوب القديمة مغتالة من أمكنتها ومهرّبة من سفينة التاريخ.

لم تكن هذه التعابير الأخيرة من صياغة فؤاد، لكنها مما قرأه في لحظات بحث في المواقع الإلكترونية. هكذا أضحت فلتات اللسان التي يشتغل عليها التحليل النفسي مجسّدة في كلمات وعبارات البحث التي يكتبها الفرد في خانة البحث في محركاته الإلكترونية وبخاصة محرك البحث غوغل.

وبدأ الشك يحوم حول ذهن فؤاد لكي يزعزع اليقينيات التي بناها كبرج وحصن لعلاقاته مع المحيط. بدأت أسئلة كبرى تزاحم وعيه وقصده، تراجع معه الماضي وصدفَه التي اعتبرها هدية قدَر له. وضع في قفص الاتهام كل واحد ممن عرف داخل هذه الدائرة، بدءًا بالسيد عبدالجواد، ثم الشيخ حميد، الحاج كمال، وآخرون. لا يدري لماذا لم يجعل اسم السيد عبدالعاطي ضمن هؤلاء المتهمين في محكمته العقلية. كل يوم يجمع خيوطا جديدة ويضيفها إلى أخريات ويحاول أن يستنتج. لكن الرأس قد يصبح فرنا فيكاد ينفجر إذا لم يجد متنفّسا يخفف عليه وطء وعبء المجهول في تفسيره، لذلك وجد في مدينة الدار البيضاء ضالته في تحقيق توازنات جديدة.

قد يفسر سرّ تشبث الناس بهذه المدينة رغم وحشيتها وابتلاعها للأفراد كبالوعة بحرية يغرق فيها كل سابح. كيف يتقن العيش في الغرق الجديد؟ ذاك ما كانه عيشه للتناقضات قبلها بين خلوة الزاوية وطقوس الزهد ولقاء الجماعة، وبين صخب تفريغاته في العلب الليلية بالمدينة الجديدة بمدينة مكناس. الآن هو بالدار البيضاء، ولا تخلو المدينة من لازمات تترجم ثقافتها: كازا يا كازا، اللي مشى ما جاء. أو: الدار البيضاء، تشوف حتى تعيى وتشرب الشراب. وما يكونه الشراب سوى جعة باردة أو نبيذ معتق يفرّ له الغرقى في هذه المدينة. لكن التوازنات مطلوبة كل صباح يوم جديد. حتى إن فؤاد أصبح يرى وجوه الناس بأقنعة وليس بملامح إنسانية صادقة، وفي ذلك تبرير و شرعية لأقنعته التي يشعر باستعمالها في يومي هذا الأخطبوط العمراني والثقافي: الدار البيضاء.

في لحظة نشوة وسمر ليلي، يعبّر لمجاوره في مقصف الحانة:

ـ يوم واحد في الدار البيضاء يساوي ألف سنة في مدينة صغيرة.

يجيبه الطالخ في ثمالة:

ـ ليلة القدر خير من ألف شهر.

قد يستغفر الإثنان أو الواحد منهما من هذا التلاعب المازج بين المقدس والمدنس، لكن سحابة خطورته تنفلت مع سيل الكلام والحوار والانتقال من موضوع إلى آخر.

أن يلتقي السيد عبدالكبير العمري بفؤاد، فتلك بداية قدر رُهن به مستقبل فؤاد. وطبعا لن يكون بطلا لحكايات خارقة بقدر ما سيكون خيط تفسير يبين منطق الواقع المتشعب في العلاقات الإنسانية، وكيف يمكنها أن تتداخل وتتفاعل لتعطي أحداثا ما. أحداث قد يعترف بها التاريخ ويرويها للأجيال أو قد يطمرها فيتركها في دفاتر النسيان.

فعلا كان لقاء عاديا يدخل في مجال المصالح المشتركة التي تجمع الحاج كمال مع السيد عبدالكبير. فقد تطورت تجارة الخزف والملابس بالعاصمة الاقتصادية، وبدأت السفريات تتعدد بالنسبة لفؤاد، لكن هذه المرة كانت اجتماعا مصغّرًا وخاصا جمَع الطرفين.

لمدة سنتين وزيادة غابت فيها شخصية عبدالكبير، نقص وزنه ونحفت قامته فبدا مجهدا نسبيا. لكنها ظروف العمل. في سنه المتقدمة الآن، بدأ بعض البياض يغزو لحيته الرقيقة التي عفا عنها وتركها تنمو، في معطف وبري أسود، نزع السيد عبدالكبير قفاز يده اليمنى ليسلم على ضيفه في تركيا، على السيد فؤاد الذي ارتدى خلال هذا الفصل البارد سترة بنية اللون.

فؤاد مدير شركة للتصدير والاستيراد، والسيد عبدالكبير رجل أعمال مشهور في تركيا وبعض شواطئ البحر الأبيض المتوسط. يعتبر نفسه نورسا له مرفأ في

كل ميناء وكل بلد يحيط بالبحيرة الزرقاء، بحيرة روما سابقا وحوض حياة عبدالكبير حاليا.

حينما انتقلت السيدة نعمة للحياة معه في إسطنبول، شاءت الظروف أن يحتجب السيد عبدالكبير لمدة سبعة أشهر تقريبا. كانت مهمتُه المستعجلة بالعاصمة المصرية القاهرة، باسم جديد وصفة جديدة كذلك. في موطنه المغرب، وفي بلدة مولده ونشأتِه، انتشر خبر وفاته أو اغتياله. مات السيد عبدالكبير في البلاد الليبية التي تشهد تصدعات خطيرة. كان في مهمة أمنية لحماية شخصية ديبلوماسية، مات شجاعا في حفل رصاص لا يرقص فيه إلا الأبطال. هكذا انتشر الخبر بصيغته المسموعة والتي تلقاها أهله هناك عبر مكالمة هاتفية. أسرة كبيرة تشتغل بالفلاحة والتجارة، تستمد قوة تطورها من أبنائها الذين تقلّدوا مناصب مهمة داخل مؤسسات الدولة. كان السيد عبدالكبير ممّن وهبوا قريتَهم ذلك الأمان من غدر الزمان وتسلط أصحاب سلطة من السلطات. مكالمة واحدة منه قد تحدّ مشكلا طارئا لأحد افراد أسرته الكبيرة أو الصغيرة، كيفما كان حجمه وخطورتُه.

بقيت زوجته نعمة بدون علم بما راج حول وفاته. لكنها بقيت تعيش بإسطنبول بقدر الشرط الذي وافقت عليه حين قرانها بالسيد عبدالكبير. هكذا خلقت حياتها الجديدة، وبدأت تتعلم اللغة التركية، ونجحت في ذلك بشكل بارع أدهش محاوريها كل مرة. كل مرة تتساءل عن طيف ذلك الشخص الذي كان جالسا بمقهى، والذي رمقته من وراء نافذة الميترو وزجاجها:

ـ هل يكون هو الشخص الذي تنازعَتْ معه وعنّفها؟ فكان قدر خروجها من مدينة مكناس ثم طنجة فإسطنبول؟

لم تمتلك جوابا. بدت نحيفة و طويلة نسبيا عن نعمة طنجة. بدلة قرمزية داخل معطف بني مفتوح، وحذاء أسود متوسط العلو، غلب عليها في الوصف شكل نساء إسطنبول العصريات والأنيقات اللاتي ترجمن الحداثة والموضة ورغد العيش والاستهلاك.

ها هو الآن حاضر بنفس المدينة التي استقرت بها. قدره أن يتناول وجبة عشاء دعاه إليها السيد عبدالكبير. وقد كان اختيار المطعم من طرف السيدة نعمة العمري كما أصبح يلقّبها به مجتمع إسطنبول. كان المنظر جميلا ومطلا على مضيق البوسفور من ضفة القارة الأوروبية التي تشترك المدينة في جمعها بين الشرق والغرب، بين شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة الأناضول. لم يكن يهم الثلاثة تعقيدات الجغرافية أو السياسة أو التاريخ بقدر ما كان يهمهم مناقشة بعض الصفقات التجارية المستقبلية. كما أن السيد فؤاد لا يعرف عن مضيفه سوى صفتِه كرجل أعمال مغربي ناجح في الديار التركية. وربما، لأول مرة يرى ذلك ويتمثّله.

قامت السيدة نعمة بحجز طاولة بمطعم (ماغنورا). حالفها الحظ في أن تكون الجلسة في زاوية مطلة على الشاطئ وعلى زرقة البحر. إنما توقيت اليوم بدأ يسلبها هذا المشهد ليهب الجالسين فيها مشهد ثريا الأضواء المتلألئة التي تؤثث

الضفتين والمتحول مع ألوان طيف شكّلتها الغيوم المتفرقة في السماء لتعطي لوحة رائعة يهبها السقف الزجاجي لهذا الجناح من المطعم المحتضن للقاء..

لم يتذكر السيد فؤاد السيدة الجالسة أمامه. إنما ذاكرة المرأة لا تخونها. تيقّنت أولا من كون الطيف الذي رأته وهي في رحلة الميترو يعود لهذا الشخص الجالس أمامها، وتذكّرت ثانية بأنه ذلك الشاب الذي وقع لها معه نزاع في مدينة مكناس. عضت على شفتها السفلى وهي تسترجع بعجالة كل هذا الزخم وهذا القدر. أجّلت شرب سيجارتها وتمالكت أعصابها وهدوء ذهنها وكانت هي المبادرة للترحاب وللحوار وتبادل الكلام مع السيد فؤاد. تتساءل مع نفسها كم يلزمه من الوقت أو من إشارات لكي يتذكرها، خصوصا وأنها تغيرت في شكلها وهيأتها وهنداما ولكنة كلاما. حتى من شعرها فقد أصبح مصبوغا بلون قرمزي مائل إلى الحمرة، وهبها إطلالة راقية ومفعمة بالحيوية.

استغلت السيدة نعمة ذهاب زوجها للرد على مكالمة هاتفية خاصة من أجل تجديد الترحيب قائلة:

ـ سيد فؤاد، أنا نعمة التي تعرفت عليها بمكناس. أتمنى أن تكون بخير الآن. بالنسبة لي فقد نسيت ما وقع وأعيش حياة جديدة. أرجو ألا حاجة لزوجي لكي يعرف ما حدث بيننا هناك. مرحبا بك في إسطنبول. أنت ضيفي الآن. لكن اسمحْ لي، ربما رأيتُك هنا من قبل. أليس صحيحا؟

ـ أتيت إلى هنا قبل مدة. الآن أتذكر كذلك رغم ضبابية الصورة التي رأيت. هل كنت عابرة المضيق بالميترو؟

ـ فعلا. ذاكرتك قوية. رأيتُك من وراء نافذته.

يعود السيد عبدالكبير من مكالمته الهاتفية التي تلقى فيها معلومات إضافية حول شخصية السيد فؤاد وخيوط علاقاته مع حاج كمال وجماعة السيد عبدالجواد وأبي ذرّ الغفاري الذي أصبح قائدا ميدانيا في القتال بالبلاد السورية.

يفكّر مليّا فيما تلقاه و يبحث عن طريقة لجعل الرحلة الثنائية لهما حتى مدينة أورفا، هذه المدينة التي خضعت لتركيا بموجب معاهدة لوزان التي أقرت حدود دول منطقة كل من تركيا وبلغاريا واليونان ودول المشرق العربي سنة 1923. مدينة تاريخية وأثرية كذلك، وعاصمة السوق السوداء في التجارة بالآثار المسروقة الآن. لكنها أيضا، معبر للمجاهدين المتنقلين بين سوريا وتركيا.

كان أحد الحوارات التي أجراها صحفي مع مواطن سوري، اختار حلا ثالثا للعيش في ظروف الحرب التي فرضها العالم على بلاده، سببا في تحرك البحث عن شبكات التجارة الدولية غير المشروعة في الآثار المنهوبة أو المهربة. وطبعا عملية السبق للخبر وللحدث في تتبعه جعل الإعلام كما المخابرات والمؤسسات الدولية، كلها تتحرك بشكل متفاوت في مسايرة واحتواء ما يجري.

ـ ما رأيك أن تسافر معي غدا إلى مدينة أورفا وبعدها نعرج على أنطاكيا جنوبا لملاقاة الحاج كمال؟

ـ ستكون فرصة مناسبة للتعرف على مناطق جديدة. هل تبعد مدينة أورفا عن أنطاكيا؟

ـ لا، هي فقط رحلة نصف نهار على أبعد تقدير.

كانت السيدة نعمة هي من أقلّت بسيارتها الطرفين إلى مطار أتاتورك الدولي. ابتسم فؤاد لصدفة اللقاء ومغايرته لما خزنته ذاكرته النفسية من توترات وعقد ذكريات أليمة ماضية. حاول وهو يتصفحّ كتيبا سياحيا خاصا بمدينة أورفا أن يجعل إشارة خير في كل ما وقع.

ها هو الآن ممثل شركة وفي رحلة اكتشاف وعلاقات جديدة. أطلّ من نافذة الطائرة بعد أن وضع حزام الأمان الذي أمرهم المكبرُ الصوتي بوضعه وحزمه، بدت به قمم جبال محيطة بموقع المطار ووردة إسمنتية رمادية مكوّنة من أربع بتلات، اتضح له أنها مفترقات طرق في شكل هندسي جميل. التفت لرفيقه في الرحلة الذي غفا لمدة نصف ساعة قبل أن توقظه المضيفة بصوتها الناعم. ابتسم قائلا:

ـ وصلنا إلى أورفا في الوقت المحدد تقريبا.

ـ الحمد لله. تلزمنا مسافة كيلومترات لكي نكون في المدينة. فهي تبعد عن المطار نسبيا. سنلتقي تاجرا هناك ونتجول في أورفا قبل أن نتخذ طريقنا لرؤية الحاج كمال.

يسبح السيد فؤاد بخياله في مقارنة بين مرافقه وزوجته وحياتهما المتحررة وبين رفقة الحاج كمال وجماعته بالمغرب، لا يجد رابطا أخلاقيا ودينيا جامعا بينهما.

لكنه ينفلت من توقير الصورة لكي ينبش في جزئيات تشوهاتها. يستحضر ما اكتشفه أو استنتجه شخصيا. زواج الحاج كمال السري بالمغرب، تغيبات السيد عبدالجواد وغموضها حتى عند زوجته، خلل الحسابات المالية في تسيير الشيخ حميد للمؤسسة التعليمية بالمغرب، التجارة المغلّفة بالأواني والمخبّئة للآثار والتحف، الذهب المصهور بالمغرب والمهرّب لتركيا...

تزاحمت كل هذه التخمينات في ذهن فؤاد ما جعله يطلب من السيد عبدالكبير الاستراحة بمقهى المطار وتناول كوب قهوة قبل الانطلاق لأورفا. وكأنه يذهب بفكره وتحليله إلى حدودهما القصوى. وكأن اقترابهما من الحدود السورية من جهتها الشمالية يشعره بكون المكان يُجَمِّعُ المتفرق في شبكة هذه العلاقات والشخصيات. أليست جل التحف المهرّبة إلى المغرب آتية من سوريا والعراق؟ أليست تجارة الذهب بطريقتهم غير قانونية؟ ألا تكون تبريراتهم خاطئة؟

ـ نحن نخدم الإسلام والمسلمين بعملنا وتجارتنا. تصوّرْ يا سيد فؤاد، كم من امرأة مسلمة في مجتمعاتنا عندها حليٌّ وذهب وجواهر ماسية. لا تنفع بها لا أهلها ولا مجتمعها. إنه مال كاسد. لو كان عندها وعي إسلامي وإيمان حي بقضايا المسلمين، لوجدتها متبرعة به من أجل رفع راية الإسلام. ما رأيك هل سننتظر حتى يكتمل الوعي عندها؟ سنحتاج إلى آلاف السنين. أنا أبرر وأقدّره مشروعا ما يقوم به المجاهدون من بيع وشراء في النفط والذهب والنفائس. أعتبرها كنوزا منسية. سهامها الشرعية لخدمة الإسلام والمسلمين.

ـ يا سلام عليك آ الشيخ حميد.

هكذا يردد سلام التعجب مع نفسه وهو يتذكر مثل هذه الأجوبة عند الحاج وعند غيره من جماعة السيد عبدالجواد والحاج كمال. لكنه يتفحّص ملامح وجه السيد كبير ويتساءل عن المشترك مع هؤلاء. ربما التجارة والمصالح. بالأمس في وجبة العشاء، تناول سي كبير كؤوسا معتقة فيما اكتفت زوجته بكأس روزيه خفيف.

ـ يا سلام سي كبير عمري. مدينة أورفا رائعة وجميلة.

هكذا التقت العبارة في جمعها بين سخرية وتواصل حوار وتعجب. ولج بهما سائق سيارة الأجرة شوارع المدينة وما يزال ذهن فؤاد يتكلم بصوتين وعقلين. هل بدأ يميز بين عالمين، ظاهر وباطن؟ يتذكر أنه لم يلتزم بمسالك الجماعة في الدربة والجذبة والخلوة وطقوس التعبد الصارمة مع النفس ومع مثيرات الحياة. لن تكون له كرامات معرفة باطنية إذا. هذا ما تعلمّه من دروس الوعظ والإرشاد الخاصة. يأتيه طيف لحية أبي ذر الغفاري في صورته التي بعثها له مع الحاج كمال وهو يعتلي سيارة تويوتا رباعية الدفع ويرفع سبابة التوحيد والنصر بجانب الراية السوداء المخطوطة بخاتم خاتم الأنبياء.

يخفق قلبه بشكل غريب ومفاجئ وكأن أورفا موقع المعارك وليست مدينة السلام والسياحة الهائئة. يُبعِد عن ذهنه هذه التخوفات حتى يعيد لقلبه نبضه

العادي. لكن صمت السيد عبدالكبير خلال مسافة الطريق أكسبه قلقا إضافيا. ليس هو الشخص الذي كان حيويا في حوار وغناء البارحة.

ـ لك أن تتعرف على هذه المدينة الرائعة. سأجعل معك دليلا سياحيا يساعدك جيدا على زيارة مآثرها ومرافقها الحيوية. وإذا سمحتَ لي سيد فؤاد، سأتركك لبعض الوقت من أجل زيارة صديق قديم ومريض ومقعد. لا أريدك أن تضيع فرصة التواجد هنا معي. استغِلْ الوقت واستمتِعْ بأورفا. أرى أن المطوية السياحية ما تزال بين يديك.

ـ لا عليك سيد كبير. نلتقي بعد حين.

فعلا، لم تكن الزيارة فارغة أو معدمة من الاستفادة. عشق فؤاد ما رآه. زار "أبايدبارك"، و "أورفا سيتي"، وهي أسواق تحتوي على أكبر العلامات التجارية في الملابس والمجوهرات ومستحضرات التجميل والإلكترونيات. زار المآثر، مثل جامع مولد الخليل ومغارة مولده، ومتحف أورفا، خامس أكبر المتاحف التركية النفيس بتحفه ومعروضاته.

استحسن شرح الدليل السياحي، وطريقة تكلمه باللغة العربية. وقف مليا يتأمل بِركة إبراهيم أو بحيرة الأسماك. التفت ليركز على ملامح الدليل يوسف أزال. يستفهمه حول حقيقة المعتقد في الأذى الذي يصيب من يلمسها.

حينما طلب منه الجلوس للاستراحة اقترح عليد الدليل يوسف مقهى بجوار البحيرة. طلبا وجبة أكل لذيذة. كانت من اقتراح الدليل كذلك.

ـ ستعجبك كثيرا سيد يوسف. إنها سلطة غنية. سلطة الكِسر، تتكون من برغل محمص على النار و صلصة بندورة، ممزوجة مع الفلفل الأحمر ومع زيت الزيتون. تخلط مع الخضروات ويجعل عليه عصير ليمون. إذا شئت هناك وجبات أخرى لذيذة كذلك.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف بعد الزوال. لاحظ سيد فؤاد أذان العصر الذي ردّدته الصوامع المحيطة، الصمت الذي ساد خلال ذلك. انتبه إلى بعض عادات اللباس فوجد جل الجالسين يشبهون عرب سوريا والشام والعراق عموما في طريقة لباسهم وأزيائهم التقليدية. عادة السبحة التي ترافق الأنامل في التجوال والكلام. استأنس ألفة هذه الثقافة. استأذن صديقه الجديد في الذهاب إلى المسجد ذي القبة الخضراء والصومعة المستديرة والرقيقة، وبالأحرى هي صوامع عديدة.

ـ لك ذلك سيد فؤاد. سأنتظرك هنا حتى تعود. ولو أن القبة خضراء اللون فهي مثل البطيخ الأحمر.ههه.

لم يدرك مغزى أو معنى كلام الدليل، مَا أثّر على خشوعه في أدائه لصلاة العصر. ولو أن فضوله وإعجابه كسائح بهذه الفضاءات الجديدة قد سحر لبّه إلا أن تفكيره ذهب للمقارنة بين البطيخ الأحمر والقبّة. حينما عاد للجلوس بجانب يوسف طلب منه أن يشرح له معنى ذلك. هكذا وجد نفسه أمام تاريخ مجترح من مدينة أورفا.

ـ كانت أورفا جميلة وناعمة، لكن ظروف الحرب في سوريا والآن في العراق أثرت على حياتها العادية. البطيخ الأحمر أخضر من فوق سطحه، أحمر في داخله. صحيح؟ هي الحياة الجديدة. نجعل إسلامنا أخضر في رمزه ودمويا في واقعه. هذا ما يقع. أنا لا أتفق معهم في هذه الحرب. كثر المجرمون واللصوص، وبدأ نهب حتى تراث شانلي أورفا. البارحة ألقوا القبض على المدعو أبو براء. هو سوري يأتي بمسروقاته ليبيعها هنا للسماسرة. وجدوا أن تنظيم داعش مهتم كذلك بهذه التجارة. لا تكفهم السوق السوداء للنفط أو غيرها. تجدهم يهدمون المآثر وكأنهم يبحثون عن كنوز ذهب قديمة. والله العظيم هذا رأيي. غالبا أنهم كلهم يطمعون في الذهب. حينما يجدون تحفا أو عملات قديمة يبيعونها هناك أو هنا. يقولون مداخيل الدولة. هزُلت والله. خرّبوا البلاد وشوّهوا الدين الإسلامي. تعلم سيد فؤاد، لو وجدوا سبيلا لهذا السمك المبارك في هذه البحيرة لشووه وأكلوه بشراهة.

يضحك السيد فؤاد وينظر إلى توقيت اللحظة. يتذكّر أن السيد عبدالكبير أعطاه هاتفا صغيرا جديدا ودعاه إلى الاكتفاء باستعماله في أورفا حتى يضمن تغطية الاستقبال والإرسال. يتفحص قائمة الأرقام فيجدها أربعة. واحد منها باسم السيد عبدالكبير. يحاول الاتصال به، لكن لا تغطية ممكنة. ردٌّ آلي باللغة التركية واعتذار عن تلبية الطلب. تأتيه رسالة نصية بعد نصف ساعة تقريبا:

ـ أعتذر على عدم الرد. رجاء أطلُب من الدليل يوسف أن يحجز لك في فندق بالمدينة. سنضطر لتأجيل السفر إلى أنطاكيا. شكرا لك.

انتهى متن الرسالة بدون زيادة ولا نقصان. حكى لمرافقه طلبه وجديده. ابتسم الدليل يوسف وطمأن ضيفه بأنه سيستمتع بليالي شانلي أورفا ولن يندم على ذلك.

ـ تعلم سيد فؤاد. بعض المدن لا تعرفها إلا بوجهي عملتها، الليل والنهار، وإلا فإنها تبقى مجهولة على زائريها.

يتذكر فؤاد أن الحقيبة بقيت بمقهى التقائهما بالدليل يوسف. يطلب منه أن يقوما للحجز في الفندق والنظر إلى برنامج هذا المساء.

اختار الدليل يوسف فندق الاستقلال، بعدما تشاور مع ضيفه فؤاد في ذلك. اعتبر تصنيفه وتكلفته. راعى قربه من مكان سمرهما الذي اتفقا عليه، لكن، قبل ذلك كانت هناك جولة جديدة بين أزقة وشوارع جديدة. هذه المرة لاحظ الحضور الكبير للّاجئين السوريين الذين نزحوا إلى المدينة. وهو يسمع الأرقام التي يعدّها يوسف عنهم أو لهم، وللصراع الذي ينتقل بآثاره وانتقاماته لهذه المدينة الهادئة، يبتسم لتعليق مضيفه حين قال:

ـ لو أنهم فقط انتسبوا لخليلنا إبراهيم، وتركوا حماقات هذه الخلافات، لكانوا في أفضل حال، أمة واحدة.

يعود ذهن فؤاد لعرض الصور التي لصقت بذهنه، للمغارة والمسجد والماء والسمك. لهذه الحكايات التي نسجها الناس لقصة نبينا إبراهيم. يقارنها مع

حكايات مدينته مكناس، وبلده المغرب. هنا الأنبياء: إبراهيم، موسى، أيوب... هناك: الأولياء الصالحون. ذروة الصراع في قمتها حينما تقترب من السماء.

الجو بارد خلال هذا الشهر عموما، وليل أورفا قاري قارس. لم يكفه معطفه وشاله فجعل يديه في قفازتين قطنيتين من صنع محلي بأورفا. وهما في طريقهما إلى خان تقليدي أثري تحوّل فضاؤه إلى مجلس للسمر وغُطّيَت فتحة بهوه بسقف زجاجي مربع الأجزاء كما وصفه له الدليل يوسف، لاحظا جماعة محيطة ببرميل اتقد جمره واحمرّت ناره وسطع لهيبه لكي ينشر دفئا مرجوًّا يقي من برد ليالي فصل الشتاء ويبعث أملا في البقاء على قيد الحياة لهذه الجماعة من المشردين و المنسيين. اقتربت منه امرأة بشعرها الأشعث الذي نفشه فولار باهت اللون فوق رأسها. أصابعها تحمل آثار سواد فحم وحطب ورماد. رجلاها في صندل شفعت جوارب قطنية سميكة وقاية لهما من تعرضهما للفحة برد تجمّدهما. مدّت يدها اليمنى في طلب صدقة. كانت حلكة خفيفة تحول دون تبين ملامح الأشخاص، لكن شعاع النار سطع على خدود الوجوه وبرقت معه الأعين واستبانت معه الأنوف وفتحات الشفاه. لم يكن بخار التنفس المقاوم لبرودة المحيط ليحجب رؤية متجددة جعلت تلك المرأة تقترب أكثر، تحملق أكثر، تندهش أكثر فأكثر، تفتح فاهها فيتوزع بخار تنفسّها متلاشيا وتظهر أسنانها المصفرّة وجفناها المحفوران إلا من دُكنة دائرية توقع لآثار الزمن القاسي ولزينة مساحيق كاذبة. نطقت بصوت خافت مستغرب، ثم تابعته بأعلى صوتها محاوِلة القفز أو الطيران، الارتماء في حضن هذا الآتي الذي استغرب محياها ونطقها:

ـ فؤَاد... فؤاد... فؤاااااد...

امتزج الصراخ مع البكاء ومع الالتفاف المتسول والحاضن لركبتي فؤاد في وقفته، هذا المستغرب من المشهد ومن هذه التي حبست خطوه في عناق رجليه والنطق باسمه كأنها عرّافة نجّمت اسم هذا المقبِل على جماعة المتشردين.

عادت من زاوية كانت فيها جاثية أرضا لرؤية وجهه أعلى وهي في إجهاد تنفس ونهَجه. هذه المرة كانت الدموع تسقي جفنيها كأرض يباب متشققة انهمر عليها مطر غيث. كأنها متضرعة ومعانقة لاستدارة عمود طوطمي، صاعدة بقبضة يديها حتى مقابلة الوجهين اللذين يحتاجان إلى توقيع اعتراف متبادل. نطقت مبحوحة في صوت جريح:

ـ أنا سناء.

ذهبت في غيبوبةٍ لدقائق معدودة. تفحّص فيها فؤاد الملامح. حاول البحث في ذاكرته عن سرّ التعرف، من تكون هذه الناطقة باسمه. لم يسبق له أن زار أورفا، أو تعرّف إلى سيدة أو فتاة باسم سناء. من تكون؟

فيما بعد زوال نفس ذلك اليوم، كان السيد عبدالكبير قد اخترق الحدود الشمالية لبلاد سوريا. كانت التغطية آمنة في العبور، فالجزء الشمالي الآن تحت السيطرة الغربية والمراقبة الدولية. بلاد سوريا جسدٌ مزّقته الحرب أطرافا ونهبٌ بقر بطنها ونشلَ درر محارها.

رغم فهمه لما سمعه من مرافقه في مهمة برية، لم يكن ليعير الاهتمام أو الأسى لما تلفّظ به صاحبه. يعلم أنها الحرب، وأنها حلبة وصراع مصالح وبقاء للأقوى. لا وقت للندب والعويل والتحليل.

نعم، إن كل ما يراه هو من علامات الساعة وقيامها. نيران مشتعلة في الأخضر واليابس، ودمار عمراني يشكل الفناء الحقيقي. ما تزال أسراب الفارين أو النازحين تعبر الطرقات أو تنتظر الحافلات. الضحك المبكي هو الذي تراه عيناه. مصراع مرحاض أبيض فوق المتاع الناجي والباحث عن منفاه. لكن قلبه ممنوع من الصرف الصحي والإنساني، لا شفقة في العمل. قد تكون رصاصة ما مستعملة هي جواز العبور من محطة إلى أخرى. كل تردد يجعل تلك الرصاصة مرتدة وقاتلة بين الخطوات.

بالقرب من مدينة الرقة، جرت معارك حاسمة للسيطرة على مواقع وقرى وعلى معبر إقليمي بين المنطقة الشمالية والمناطق الأخرى الجنوبية والشرقية. بداية الارتداد للزحف الداعشي الذي سيطر على الإقليم منذ سنة 2014.

يستغرب سمعه للنسبة المئوية الواقعة تحت سيطرة داعش، يفتح فاهه لرقم أربعين في المائة في مقابل خمس وعشرين في المائة لما هو تحت سيطرة النظام الحاكم، بينما الباقي موزّع في رقعة شطرنج بين المتدخلين الآخرين في النزاع.

خمس وعشرون جثة معروضة في خط أفقي وبشكل متواز مع خندق محفور. لا يهم السيد عبدالكبير شكل التشوهات التي تعرضت لها هذه الجثث، ولا أطرافها المبتورة أو بشاعة الموت التي وقّعت على بلادة الإنسان، ما يهمه هو التعرف على شخصيتين، رغم كونها جثتين هامدتين. اسمها مؤشر على وتيرة الحرب والسياسة، وعلى مسار جيش التنظيم الداعشي وقادته، وكذا شبكة توزيع روافده وتجفيفها حين الانتهاء.

موسم عودة الغيلان إلى جحورها، التي كانت قد انطلقت منها، قد حان. وبدرجة سهولة تهييجها بدرجة صعوبة تهدئتها وترويضها لكي تبتعد عن وحشيتها وعنفها المتقدين. والسيد عبدالكبير مجرد منفذ لتعليمات برنامجٍ هذه حربه وهذه سياسته.

من غريب الصدف أن الرسالة التي كان الحاج كمال قد سلّمها لفؤاد ومعها صورة للسيد عبدالعاطي حاملا سلاحا رشاشا فوق سيارة تويوتا رباعية الدفع، ـ وما يهمه فيها الآن الصورة ـ هي نفس الصورة التي يتوفر عليها السيد عبدالكبير، إنها صورة أبي ذر الغفاري. وكأنه روح مستنسخة ومتناسخة. لا يدرك السيد عبدالكبير سرّ تأمله لسدرة شوكية نبتت منفلتة في منطقة منعزلة ومقاومة لقساوة الثلوج والصقيع غير بعيد عن الخندق.

كانت تلك الجثة السادسة، هي مقصوده في التعرف على اسم سيرفع تقريره للجهات المسؤولة هنا وهناك. مات أبو ذر الغفاري، ومات معه الشخص الثاني في مذكرة البحث والمهمة: أبو قتادة المغربي، تمييزا له عن قتادات كُثر في التنظيم.

صوّر الجثتين، وفحص جيوبهما. أخذ عينة من لعابهما وأجزاء من لحمهما الممزق وشعرهما. كانت السيجارة التي أشعلها على بعد أمتار من الخندق المحفور مضيئة لصفحة وجهه وموقّعة لشخصه وإيذانا بالطمر وتنبيها لانتهاء المهمة المخبرية والمختبرية.

الغيوم الكثيفة المتوزعة في السماء والمتلاقية لحجب فسحة الكون العلياء، لم تسمح بمعرفة متى غابت شمس ذلك اليوم، ولا متى بدأت المهمة، ولا متى حلّ هذا الظلام من كل الجهات إلا من مصابيح سيارات عسكرية أمريكية الصنع ومن ساعات يدوية تضبط بالدقيقة والساعة متى كان البدء ومتى كان الانتهاء.

رغوة بيضاء انسابت على جنبات فمها، وجفنان انقلبا إلى أعلى، كزبد بحرٍ ميت اعتصر ملحه أو قمرٍ انطفأ وانقلب من نيزك مضيء إلى حجر ضائع في عمى الفضاء. نُقلت على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى ومستعجلاته، ولم يكن سوى المستشفى الخاص باللاجئين والذي يستقبل أعدادا مهمة من المرضى والأطفال وتدعمه الدولة والهيئات الدولية بأحدث التجهيزات والأدوية.

تلقت الإسعافات الأولية بعد أن تم جسُّ نبضها وتفحصُ لون عينيها.. حُقنت بمهدئ وباتت في الإنعاش والعناية المركزة موصولة بأنبوب أوكسجين وقنينة سيروم.

عاد فؤاد في الصباح، على الساعة التاسعة والنصف تقريبا إلى المستشفى. استرجعت سناء قبل ذلك وعيها وملامحها الأولى، كأنها خضعت لتحوّل فزيولوجي وذهني غريب. اندهش لاختبار التذكر وصدفة اللقاء. تساءل عن سرّ رحلته الجديدة هذه بين المدن التركية وشخصيات الذاكرة والماضي. وقفت داخل وجدانه أمُّه، بصوتها ونداتها الرحيم:

ـ أرجوك يا ابني، استعجل زواجك بخطيبتك. لقد مرّ عام على خطوبتكما، وأبوك أقعده المرض كما ترى. نريد أن نفرح بك وأن نُدخِل البهجة على العائلة وعلى إخوتك وأسرتك. العمل والتجارة وهذه الدارالبيضاء وهذه الأسفار، أمور وعوالم لا تنتهي. اجعَل لك عشا تعود إليه بعد كل رحلة.

هل كان لقاء نعمة المسيري صدفة فعلا؟ وهل لقاء سناء الوردي ترديد لصوت أمه؟ يجهل غرائب ما يقع وما يسود ذهنه من تساؤلات.

ـ سناء الوردي؟ بنت الحاج عبدالكريم، بنت درب البازار؟ لا يعقل هذا. كيف وصل بك الحال إلى هنا؟

أغمضت عينيها من جديد بعد أن فتحتها على أسئلته توقيعا وشهادة على استمرارها وبقائها على قيد الحياة. ستحتاج لدقائق قبل أن تستجمع قواها الداخلية وترتق ذاكرتها وذهنها لكي تنسج وتحكي قصتها لفؤاد، ابن مدينتها، وابن المدينة القديمة وحيّها داخلها.

كنت من بين عديدات، ممن أغراهن التواصل الرقمي في البحث عن بديل أو بدائل للسعادة المفقودة، عن حياة جميلة وتحقيق أحلام شبابية مستعجلة. وكأنني أريد أن أفلق الصخر لكي أنبت زهرة نرجسية تبرعمت في ذاتي وعددت بها حظوظي ورهاني. عديدات هن من وقعن في الفخ الذي وقعت فيه.

بدأت تهددني البدانة والسمنة، وتفر مني الثقة بالنفس. لمست نقصان الانجذاب والافتتان الذي كنت مثيرة له وموقعة به كم من الشباب. كنت مدمنة على المملحات والحلويات، على مأكولات الماكدونالدز والبيتزاهوت. مذاقاتها تسحرني وتجعلني أعيش نشوة خاصة وفريدة. أغمض عيني معها فتسري خيالاتي مع خلاياي. امتلكتني حميتها وأنا مبالغة في كثرة الجلوس والقعود أمام الحاسوب، ومع ضغط أزرار الحظ ودوامة الأحلام. تعرّفت على شاب مغربي يعيش في تركيا. كان يعمل بمطعم للماكدونالدز بمدينة أضنا الواقعة على نهر سيحان على بعد ثلاثين كيلومترا من البحر الأبيض المتوسط. سحرتني بجمال صورها والفيديوهات التي بعثها لي مصطفى. هو اسمه الذي ناسب المختار عليه السلام كما ناسب الزعيم التركي أتترك. لمست في جمع التسمية أمانا واستئمانا على روحي وطموحي. تواعدنا بالزواج، بالحياة في تركيا، بالعمل هناك. لم تكن لي آمال للتطور في حياتي ببلدي ولا بمدينتي. جيوش البطالة يتراكم عددها واصطفافها في شوارع العاصمة. حظوظ تخصصي في الآداب الفرنسية ضيّقت آفاقها محدودية دخل أسرتي، بالرغم من كون والدي تاجر، من كون

واجمة الدكان ساحرة ومغرية بالرواج، فإن دخل الأسرة بالكاد يتدبر ضروري اليومي واحتياجاته. لا تحتاج الكرامة والعفة إلى الصراخ للتعبير عن كل هذا في حينه.

صديقتي أسماء، كانت محظوظة بالعمل والزواج، برشاقتها وطولها، فيما كنت أنا أقصر وأبدن. سأهاجر. صمّمتُ على تنفيذ خطتي. ما اتفقت عليه أنا ومصطفى. ستكون رحلة منظمة مع وكالة أسفار. حددنا وقت اللقاء بتركيا. كان مصطفى من دفع تكاليف الرحلة. شعرت بقوامته وجديته حينها. اندفعت أكثر إلى تغييب كل ضعف شعوري يعرقل تصميمي وعزيمتي. سأتخلى عن جماعة السياح المسافرين في الرحلة وأبقى معه هناك في أضنا، أجمل المدن التركية بمياهها وموقعها ومسجدها سبانجي الذي يغري البحر بالسجود له تبجيلا وتقبيلا. ويبدو أن وضعية الفرار كانت قدري حتى ساعتي هاته. حتى هذا السرير وهذا المستشفى سيرّمِيَاني خلال ساعة من هذا النهار. لا أوراق لدي، لا وجدان ولا حياة.

أشعر بأن كل شيء في جسدي وذاتي قد تهدّم مثل هذه القرى وهذه المدن السورية التي رأيتها تتهدم وتتلاشى دمارا وخرابا ودخانا. لم يبق بداخلي سوى عواء ذئاب مجترحة وجارحة. نهش الكل جسدي، وقبلها أنوثتي. وما مصير جثة منهوشة سوى أن تبقى عرضة للضباع والجياع بين الشوارع والخرائب. ما تبقى فيَ من كرم لكي أهبَه لهذا الوجود بوحوشه في غياب ملائكته. أنا طالبة سنة ثانية أدب فرنسي بكلية الآداب بمكناس وقد أصبحت (كوزيت) قصة البؤساء

للقرن الواحد والعشرين، رغم أن كوزيت لم يعرّضها فكتور هوجو لأشكال التعذيب والاغتصاب والإهانة التي تعرفت عليها وتعرضت لها.

هل تستطيع إخراجي من هذا الجحيم يا فؤاد؟ أتوسل إليك. أنت الملاك المتبقي في هذه السماء. إذا لم يكن ذلك فدعني أرحل بروحي من هذا الوجود حتى أنقذها من سعيره. كفاها صبرا معي وانتظارا واحتراقا.

مرّ نهار اليوم الثاني دون أن يظهر للسيد عبدالكبير أثر. لم يتلقّ فؤاد أية رسالة نصية في هاتفه الصغير الذي يربط الاتصال بينهما. جهاز لا تترصّده الأقمار الاصطناعية ولا برمجات غوغل الخرائطية. لم يشأ أن يسأل بنت مدينته سناء عن تفاصيل جحيمها الذي قادها إلى وعيد القيامة المشتعلة في بلاد الشام. حتى الجراح تحتاج إلى جعلها تنتظر في التفجر وطلب العلاج. كانت دموعها وشهيقها توقيعا على الجزء الأول من روايتها، رواية سناء بنت الحاج عبدالكريم الوردي، بائع البلاغي والأحذية التقليدية بسويقة المدينة القديمة بمكناس.

وجد الدليل يوسف صعوبة كبيرة في توفير إقامة مؤقتة لسيدة لفظتها نيران حرب كجمرة خَبَثْ، لكنها نالت حظها من القرف وعدم استساغة شخصها. جرثومة خبيثة تحمل آثار العدوى التي يمكنها أن تنشر وباء ساما ومميتا. امرأة عاشت جهاد النكاح. بقدر فضول التعرف على الظاهرة بقدر اشتعال غيظ الجل عليها كسبب في تأجج ساحقة الحرب التي لوثت العقل والروح قبل أن تلوث البيئة والمدينة والمعيشة. امرأة ملعونة بكل مقاييس القيم والعرف والذوق. كل هذا كان شعورا دفينا في لاوعيها قبل وعيها.

يأتيها الطارق السكران ليلا، يجرها من عِقصة شعرها الخلفية، تحدس الشر والظلام والرغبة المتوحشة لليد التي فتكت بخطوها. تستسلم في نصف صرخة لا تكتمل، فسرعان ما تكتم أنفاسها بخنق فمها وتنفسها أو بضربة تنذر بقتلٍ آتٍ في حالة ما استمرت في عنادها ورفضها. يأتيها الصوت القامع: شششوت. تتبعه حركات تلمس لأماكن أنوثتها إن كانت قد بقيت فيها أنوثة، تلمس نهديها الممعوكين وفرجها الغائر في خيبة رغبة من كل شهوة أو متعة. تشرع أبواب قلاعها استسلاما للعدو الزاحف على ذخائر جنانها.

ما الذي سيتبع هذا المشهد؟

عاشت سناء احتمالات جوابه. ركلة من الخلف يتبعها بصاق وسب. تغطية لوجهها بخمارها حتى لا تتعرف على الفاعل. وعيد بالقتل إذا باحت أو

صرخت... قد يكون سوريًا لاجئا بمدينة أورفا فيعتبر اغتصابها انتقاما وانتصارا في معركة لم تنته بعد. وتوالت العمليات حتى أصبحت في ظرف وجيز عُملتها في البقاء على قيد الحياة ليلا أو في الشفقة عليها بأكل أو بقشيشbahşiş.

ماتت بداخلها لغة القرآن ولغة الشام والعرب أجمعين. سمعت في دراستها الثانوية أن اللغة العربية هي لغة الجنة. اجترحت بضحكة مفارقة ومستنتجة بأنها لغة الجحيم الدنيوي كذلك. تشعر بارتياح وهي تتابع لغة الأكراد لكونها لا تفهمها ولا تبتلع ذاكرتها فهما ولا وعدا ولا وعيدا.

قد تنام لساعات قليلة ليلا أو في ظلٍّ من نهار بعيد عن الأنام. لحظتها، تخاطبها أناها النرجسية بلغة فرنسية بقيت صامدة في القرص الصلب من دماغها الخادع بالفناء والآلام والعدم. تخاف حينئذ من اغتصابٍ لآخر ما تبقى من صوت طفولي بداخلها، تخاف أن تسمعها الذئاب فيبحثون عنه لنهشه وللتسلي به سائلا بين أنيابهم. في ذروة الاغتصاب أو التعذيب الذي قد تكون ضحيته قد تبتسم أو تضحك أو تقهقه، فرحا بعدم معرفتهم بالطفلة داخلها التي تلعب وتغني وتتكلم باللغة الفرنسية.

تفقد القدرة على الحركة لساعات وربما ليومين أو ثلاثة، لكن ذلك الصوت الطفولي قد يجعلها تقف وتخطو وتخطو وهي مغمضة العينين، منفصمة عن الواقع واللحظة والمحيط، نائمة لم تستيقظ بعد. ما الذي تعيشه سناء حقيقة؟

تضمنت مذكراتها فيما بعد تحليلا يحاول الجواب. تكتبها بلغة فرنسية نكاية في لغة الجهاد الذي شرعن اغتصابها وإهانة كرامتها. كل العطور وروائح المسك كاذبة. كل الابتسامات منافقة على محياهم، يذبحون المرأة باسم الله وينفثون فيها سمومهم وهي حيّة. هذه وحوش حقيقية. تجد العنوان مركبا من ثلاثة ألفاظ:

التيهvagabondage، الغرابةbizarrerie، الضياعperte.

استرجعت سناء بمذكراتها صرختها الأنثوية. حينما نشرتها بلغة موليير تلقت ردود أفعال متناقضة ومختلفة. بعضها صامت كرأس النعامة في التراب، متجاهل وقع الألم مع الكتابة، وبعضها الآخر جعلها منطلق تحليل ودراسة، كما هو الشأن لأستاذتها بكلية الآداب بمكناس أستاذة النقد والمناهج السيدة فاطمة غيور. سمّت دراستها بالوحش النائم. اعتبرت مغارته هي ذاته وتفريغها للكبت في حالات السلم، وهيجانها وافتراسها في حالات الحرب. قارنت بين مشاهد الاغتصاب الممنهج ومشاهد الفيلم المغضوب عليه لنبيل عيوش، الحالات المرَضية التي دوّنتها سناء الوردي في مذكراتها والتي عنونتها بعنوان رئيسي وآخر فرعي: يوميات غزالة في وادي الذئاب ـ وافؤاداه ! أسفل واجهة الغلاف نجد جملة: دمعتك فوق السطور توقيع إخلاص (سناء الوردي).

الغريب كذلك أنها رفضت ترجمتها للغة العربية. ما أثار ردود فعل واستنكار من طرف البعض مع مجموعة من التساؤلات: هل هي مرافعة ضد الثقافة أم ضد اللغة أم ضد المجتمع؟

لا يهمها الاستنكار، فالاستفزاز وقد قصدته سلوكا وأرادته رسالة موجّهة إلى من يهمهم الأمر.

كانت مهمة السيد عبدالكبير انتصارا مهنيا وميدانيا، برهن به على كفاءته وعلى استكمال مدارج الترقي الذي مزج فيه بين الحيوية والشجاعة. ليس من السهل دخول معاقل تنظيم داعش، أو اختراق ميدان الصراع القائم بسوريا أو العراق أو ليبيا. كما أنه من الصعب أن تقوم بمهمات داخل بلدان تحكمها أنظمة متمكنة من المراقبة الاستخباراتية منذ عقود. إنما، تشفع لها الواجهة السياسية والديبلوماسية، والواجهة الاقتصادية والتجارية والمعاملاتية. تشفع لها كذلك عمليات التنسيق وتكامل الجهود وتبادل المعلومات كبيادق شطرنج بألوان الدول تحتاج كل واحد في خانة معينة وحركة محددة لا يؤديها إلا هو. كذلك هو عمل السيد عبدالكبير العمري، وكذلك كان مضمون التقرير الذي رفع بشأنه.

تمت ترقيته واعتبرت عودته بسناء الوردي إلى ديارها إنجازا تاريخيا يرمز إلى قدرة النظام والاستخبارات على إرجاع الأمور إلى نصابها، والخيام إلى معاقلها. كان البطل الإنساني هو فؤاد، وكان البطل الاستخبارتي هو عبدالكبير العمري. تم الكشف رسميا عن هوية هذا المخبِر الذي أصبح عقيدا ممتازا دوليا، يستطيع أن يدبر شؤون إقليم دولي وتنظيم عمله وأنشطته. المرحلة العمرية للسيد عبدالكبير تستدعي باعتبار تقدمه في السن أن يستقر في مكتب إحدى العواصم، وأن يرتب العمل ويراجع أساليبه، خصوصا وأن التنسيق لمرحلة ما بعد حرب الشام والعراق أخذ جديته. آلاف المقاتلين الذين انخرطوا

في تنظيمات مسلحة، سواء ما كان فيها من داعش أو غيرها، سينجحون في العودة إلى بلدانهم أو الاستقرار في أقاليم توتر سياسي جديدة.

يرجع إلى هوايته القديمة التي برع فيها وكاد بفضلها وبفضل اجتهاده في الدراسة أن يكون مهندس دولة، لكنه قدر الدراسة بالعاصمة الرباط، وامتيازات العلاقات الاجتماعية وإغراءات المال والحرية، عناصر شجعته على ولوج قسم الشرطة والأمن، وعلى الترقي للانخراط في فريق خاص سرعان ما أصبح يعمل داخل حقل الاستخبارات وتحت إدارة الاستعلامات الخاصة.

هواية السيد عبدالكبير هي الرسم، وبراعته هي رسم الحيوانات. خلال هذه العطلة التي استحقها، صبّ اهتمامه على رسم الطيور، واختار منها المهاجرة. فرش لأرضية لوحاته زرقة البحر. جعل من أطياف مائه حيتانا وسفنا سوداء. ضخّ بقعا رمادية اللون داكنته هنا وهناك. كانت ست لوحات عبارة عن تشكيل دقيق لهجرات طيور القتال التي لم يرد أن يجعل لها كعنوان: طيور الظلام. لا يهمه الخطاب السياسي المنبري المباشر. هو يعمل ويمارس أخطر أنواع السياسة، هو يقرر قدرها ميدانيا.

لم يرَ عائلته لمدة ثلاث سنوات. كانت نعمة كذلك من عائلته الجديدة. نعلم أنه حينما عقد عليها في زواج اتفاقي، شرَط عليها وحدّد لها ما لها وما عليها، إنما وفّر لها ما كانت تحلم به. زواج مصلحة؟ لا. يعتبره السيد عبدالكبير توازن علاقة وتبادل مشاعر داخلها مع توفير ظروف عيش جميلة. يعلم أن عالم الاستخبارات يخترقه الجنس فيفجر بمواطن ضعفه كل بنيان وكل قوة أو

تماسك في الآخر. لذلك، ولكي لا يقع في فخ الجنس وشبكة اصطياده له، جعل السيدة نعمة زوجته ودرعه الذي يقيه الانفلات والارتماء في أي حضن، إذا كان ولابد من حضن. ونعمة لم ترغب في أكثر من هذا. طورت وضعيتها ورصيدها وطريقة عيشها. أصبحت سيدة محترمة تعيش في أرقى المساكن والمرافق بمدينة إسطنبول. تلمس مجال عمل زوجها وتجعل الغطاء لتصرفاته حينما تدعوها الضرورة أو التوجيهات لذلك.

ما لا يعلمه آخرون هو أن السيد عبدالكبير له أسرة من زوجته الأولى التي تزوجها حين بداية عمله في قسم الشرطة. نادية سراج، من أسرة رباطية، بعض أفراد أسرتها في قسم الأمن كذلك. لم تستطع العيش الدائم والمستمر في الخوف والرعب والخبر الكاذب والإشاعة، خصوصا حينما أنجبت ولدين مع عبدالكبير. رفضت الاستمرار في هذه الحياة الشبحية. طلبت الطلاق، فكان لها ما تريد في غياب الزوج الذي وافق مع أنه لم يستطع الحضور ولم يكن يرغب في ذلك. الكل فكّر في إيجابية هذا الحل، وفي كونه سيعطي أمنا وقوة مصداقية لعمله الاستخباراتي الدولي. علي وهدى، أيقونتاه اللتان يسهر على تفقد صورهما وأخبارهما واحتياجاتهما. أمّهما نادية بقدر تصميمها على قرار الطلاق وصوابه بقدر عذابها الداخلي الذي تعيشه، أصبحت في أزمة نفسية حادة لازمتها بعقاقير وأدوية مسكنة ما سبّب لها مرضا في شرايين القلب.

استطاع العودة بعد طول غياب والجلوس مع ولديه ومصالحة زوجته. فسّر لها ظروف العمل، وتفهّم ما قامت به واعتبره من حقها. كما أنه استطاع أن يدافع

عن نفسه ويعتبر نفسه ضحية لعمله الذي لا يستطيع التراجع فيه خطوة إلى الوراء. يحمد الله أن هذه اللحظة جعلته بسلام. ويحمد الله أن هذه الترقية ستجعله مسؤولا إقليميا دوليا. ربما سيساعده ذلك على توفير دراسة لابنه علي وابنته هدى في إحدى العواصم الأوربية. علي في التاسعة عشر من عمره، وهدى في السادسة عشر.

ملف السيدة سناء الوردي حوّله إلى شخصية سياسية أكثر منها استخباراتية. هكذا تطوى الملفات ليبرز منها ما يعتبر باقة نرجس نضرة تقدم كحُلّة عطرة وبهية للناظرين.

تحت عنوان مكتف: مومياء تعود للحياة، كتبت سناء الوردي هذه الفقرات، وسجّلت فيها كيفية رجوعها إلى بلدها المغرب. هذا الأمر زاد من غيرة عاشقة ومن خوف على بطل في أن تزحف عليه نجومية وتسلبه منها. كانت أسماء هي القطة الغيورة التي استعملت واستعانت بموائها لأن أظفارها لا تنفع في شيء، ولأنها هي الأخرى ميتة في جزء من كيانها، تمثال موسيو الحسين الذي اختفى، وكأن مافيا قد قامت بسرقته مثلما سرق تمثال باكوس.

{ لَزِمني تقمص دور سيدة تركية خلال تنقلاتي من شانلي أورفا إلى أنطاكيا ثم إسطنبول فالدارالبيضاء. أصبحت عضوة في جمعية للبر تعمل على جلب المساعدات للاجئين السوريين. وكأنني أمحي سيرتي مع داعش بدوري الجديد. اعتمد تنقلي على بيان اجتماعات ولقاءات رافقني فيها كل من السيد فؤاد كرجل أعمال مهتم بوضعية اللاجئين بالأقاليم الجنوبية في تركيا، والحاج كمال كمدير تنفيذي فعلي يزكيه حزب العدالة والتنمية في هذه المهمة والعملية. فيما كان الجزء الخفي الذي تغمض فيه عيون القانون والقضاء والجمارك والمخابرات والأمن، من مهام السيد عبدالكبير العمري. سيدة تقف بحجابها ونظارتيها خلف رجلين أنيقين ومكلفين بعملية الحجز والرد على كل استفسار. شبّهني السيد عبدالكبير بدور دمية كبيرة تكون حركتها في رمش عينيها ودلدلة شفتيها. رفع من معنوياتي بتشبيهي كذلك بالنجمة الأمريكية أنجلينا جولي.

ـ لا تأثر ولا دموع ولا خوف. ولا حتى قشعريرة مسام. واضح ! ستكونين مثل المومياء التي نعبر بها القارات، لا دخل للشعور أو النبض في نقلها.

ـ مفهوم !

ـ مفهوم سيد عبدالكبير.

وكنت المومياء، كقطعة أثرية كبيرة الحجم، تم تمريري من ثقب الإبرة وسمّها تحقيقا لظاهرة فيزيائية جديدة.

سأترك الفصل الأخير للإدانة لمن كان لا يرغب في قراءته، فله أن يتوقف مع هذه السطور. لكنني الآن أسأل السيد عبدالكبير عن أمر بدا لي غامضا. ربما لم يكن هو متورطا فيه. أكيد. لكن عيونا خفية كانت تتربص بخطوي ووضعي في مدينة أورفا. قد لا يتدخلون في تعذيب أو اغتصاب، لكنهم كم من مرة أنقذوني من موت محقق، سحبوني من نصل سكين ومن طعنة خنجر. هي الكتابة، سؤال في سؤال}.

اختارت السيدة أسماء حياة جديدة. أم لطفلة تكبر بسرعة، وزوجة لموظف سابق ببنك خان أمانته وخان ثقة الناس، بعض عناصر جعلت الحياة تضيق بها وببنتها كذلك. انتقلت للعيش والعمل بمدينة المحمدية. وهي في كل ذلك كانت في تواصل مع السيد فؤاد، رجل الأعمال أو مديرها الذي أصبحت له علاقات جديدة وكبيرة.

قامت بتصفية ممتلكاتها وتحويل استقرارها إلى فضاء جديد يسمح لطفلتها أن تنموَ دون خدش لنفسيتها بما ارتكبه أبوها. هذا الأخير الذي لم يعد له ذكر في حياتها. غيّر اسمه مثلما غيّر إقامته وجعلها خارج المغرب. محاولات عائلية لكي تقرّب بين الزوجين باءت بالفشل، فكان طلب الطلاق الغيابي الذي انتهى بالفصل بينهما. لكن أخطر ما يسحق نفسية المرأة هو نظرة الناس الاحتقارية. رغم أنها لم يكن لها دخل فيما وقع، لكن الناس وكأنهم ينتقمون طبقيا فيجعلون خندقة لهذا مع ذاك. في بعض المرات تشفع لهم وتبرر نظراتهم الازدرائية أو الاتهامية، وفي أخرى تنفجر صارخة وباكية أو في أنين ناي حزين مجروح المخارج وتزيده هي بوقع شهقاتها...

كان السيد فؤاد سندا لها في مراحل نكبتها. تركب رقمه أو تضغط على حرف الفاء يخرج في قائمة المسجلين في مذكرة هاتفها. ترسل كلمة صباحية ويرد عليها بباقة ورود رقمية. يبحران ليلا في حديث شجون ويتناسيان الماضي والواقع،

فيكون هذا المناخ عيادة خارج المكان والزمان، تساعدها على الانشراح والخروج من ضغط دم قد يزيدها أرقا. تتغيّر نظرتها للألوان ولجسدها فترى فيه فينيقا منبعثا ومرتعشا ومستدفئا بصوت فؤاد. تتبلل المسام وتزداد حرارة ما، يشعرُ بها الدماغ، فيرسلها إشارات خاصة.

بعد انتهاء كل مكالمة تعود لها حيوية وطاقة شبابية مفقودة، تجعل لغدها هدفا وغاية. هكذا توالت الأيام. لم تكن تطلب أكثر من هذا من شخص فارقتهم الحياة ولاقتهم صدمة أو صدمات. وعدت هذا فأخلفت بوعدها له، بينما غايرت قصدها وأسلوبها مع آخر.

تبعد المحمدية عن مدينة الدارالبيضاء بحوالي عشرين أو ثلاثين كيلومترا، بحسب نقطة الانطلاق ونقطة الوصول. وقد يعتبرها البعض امتدادا لمتروبول صناعي وعمراني لا ينفصل، فتكون معه المحمدية جناحا شماليا شرقيا للمدينة الكبيرة وذلك الأخطبوط الذي يزداد ضخامة فيبتلع الناس جميعا ألا وهو مدينة الدارالبيضاء.

من سيبتلع الآخر؟ تطرح أسماء سؤالها على فؤاد مقارنة لمدينتها الصغيرة بمدينة فؤاد الجديدة. تستعمل لغة المال والتجارة والاقتصاد، وتوظفها في لغة المشاعر والوجدان. يكون فؤاد وقد استوعب تشبيهها وتساؤلها أرحم من الدار البيضاء التي ابتلعته، ومن الظروف التي اجترحت بها معشوقته أسماء.

ـ سنوقف صخب الأخطبوط حتى يسمع لنداء البحر وحوريته، حتى تشعر بالأمان. لكن لابأس في أن يلتهم الأخطبوط حوريته كل مرة.

ـ كيف؟

ـ التهام لا يفنيها بقدر ما يجعل الحورية تزداد جمالا وقوة، تسافر مثل سندباد أو سيدنا يونس في بطن الحوت. التهام لطيف وناعم هو عشق لحضن واحتضان والتقاء حبيب بحبيب.

ـ آه. أنت إذن هو هذا الأخطبوط. ومن يضمن لي بأنك ستعيدني إلى صوابي وأمني؟

ـ ثقتك سيدتي في هذا الذي اقتربت منه أكثر فتخلى عن كل بحر لأجل شاطئك فأحبّك أكثر فأكثر.

يشتعل الحوار وينذر ويعجّل بضرورة اللقاء في القريب العاجل وإطفاء نيران تلتهم الأحشاء وشجرة النفس الخضراء التي تحتاج للسقاء.

في كل مرة يعود فيها فؤاد من سفر، تكون هناك هدايا لأسماء وفرح. استضافة لوجبة غداء أو عشاء، أو جلوس بمقهى شاطئي لتناول مثلجات أو فنجان قهوة ساخن بحسب الفصول طبعا. إنما هذه المرة وقد عاد بصديقتها سناء، وانخرط في الظهور في واجهة الإعلام، اختلطت عليه الأوراق في نفسيته. بين سكينة التعايش مع وضعه الأعزب بالدارالبيضاء، ووضع الخطاب الإعلامي المناهض

للإرهاب والتطرف، ودفاعه عن حالة سناء التي كانت تحتاج لمن يخرجها من قفص العدم حتى تسترجع بطولات المواجهة لأعاصير الحياة وزوابعها. سناء التي حملت قضية المهاجمة لظاهرة جهاد النكاح، إحدى الأوراق التي برع المتطرفون في تحقيقها كنسخة من الجنة الموعودة. إحدى مزاعيم التطرف لتبرير الكبت والعقد والهمجية التي تسكن المتشددين.

لم يخطر ببال فؤاد أن أسماء ستصبح غيورة ومتوترة من رجوع سناء إلا حينما خاطبته بشدة لما أخبرها بأنه سيسافر مع سناء إلى فرنسا للمشاركة في ندوة ولقاء صحفي وإعلامي، في ضيافة وزارة الإعلام الفرنسية.

كانت تتمنى أن تكون هي المدعوة لهذا السفر وسياحته. شعرت بأنها حرمت من سنوات من عمرها ومن متعة الحياة فيها. لم تسافر في سعادة إلى مكان ما، رغم سفرياتها العديدة. لم يكن كل ذلك سوى صورة فرار من جحيم الماضي ومكان تزمجره.

لم تعتبر رجوع سناء مشكلة، بالعكس، موقفها الإنساني والصداقاتي كان نبيلا تجاه صديقتها ورفيقة دراستها ومراهقتها. لكن الإنسان غريب على نفسه في بعض الأحيان. جلستْ حين سماعها لخبر سفرهما في زاوية من غرفة نومها، سكبت دموعا جمّعتْ شجونها واستشعرت تقارب فؤاد مع سناء. ومن يعلم نفسية فؤاد أكثر منها. رغم قساوته الخارجية فإنه صادق ونبيل ومحترم للآخر. يتنازل عن كل أنانياته من أجل إسعاد الآخرين. يضحي من أجل تقديم الخدمة. لكن ما أدراها أن يستسلم في لحظة ضعف؟ تعلم أسماء أن كل امرأة تسكنها

مشاعر ورغبات. تعلم أن السلوك الخارجي بقسماته ولباسه وثقافته رغم ما يبديه من تمنع فإنه يخفي رغبة مستمرة ودائمة الحضور في طلب تلبيتها. وسناء امرأة تعرفها أسماء أكثر من غيرها. شاركتها مراهقتها ومغامراتها. وبقي كل ذلك مطمورا في ذاكرة البطولات الخاصة، رصيدا شخصيا يزداد مؤشر قيمته داخل الذات.

أن يسافرا إلى فرنسا. لماذا لا تكون معهما؟ تجلس بينهما في كل حوار صحفي؟ في الفندق والمقهى وأي مكان؟

ها هي تتسلّح بثقافتها المجتمعية التقليدية، وتبدأ في مرافعة صامتة تدين فيها صديقتها القديمة. أبعَدَ أن وسّخها المقاتلون وأفرغوا فيها كبتهم وعفّنوا فرجها تريد أن تستحوذ على حق غيرها ورجل صديقتها؟ هي تعلم ما بيني وما بين فؤاد، فلماذا تقصده بالضبط؟ لماذا لا تبتعد عنه؟

يؤنبها ضميرها لوحشية الصورة التي جعلتها لصاحبتها، لكن أنانيتها تعود لإدانة الآخر وتبرئ ذاتها. كل الناس تنظر إلى جهاد النكاح على أنه دعارة مقنعة. كل الناس تحتقر المرأة التي شاركت فيها وجعلت جسدها لشهوة القتلة. كل الناس ترفض العيش مع امرأة كانت مجنونة ومهبولة ومشاركة في حفلة الموت هناك. لست وحدي من يرفض ذلك. تشهق وتدفن وجهها في وسادة مربعة داكنة اللون، فقد اغتمّت عليها الصورة فأرادت الارتماء في ظلام المجهول حتى ينقذها من ضوء حقيقة قاتلة لنفسيتها وعواطفها. بعض الأحيان يكون اللجوء إلى الظلمة منقذا من الضوء والحقيقة.

وكان سفر الطرفين في هذا المناخ المتوتر. نال كل من فؤاد وسناء حظها من لعنتها وعتابها ورفضها لاستمرار لعبة التقاء الطرفين في قضية اعتبرتها منتهية ما دامت سناء قد عادت لديارها وأهلها. لتبحث لها عن حياة جديدة وتترك هذا الارتباط باسم الإعلام والثقافة ومحاربة الإرهاب والتطرف وفضح حقيقة جهاد النكاح.

تأجل الحسم في هذه الوضعية من طرف الثلاثة، وقد كان يخصهم وحدهم دون سواهم. كانت معركة ثلاثية تنقصها جيوش الملوك الثلاثة او المملكات الثلاث الصينية.

بينما يسود التوتر علاقة فؤاد وأسماء - وهي في الأصل يشوبها غموض المصير، إذ أن فؤاد لا يستطيع الحسم في مآلها، وضعه غير مستقر بمدينة الدار البيضاء، والوضع العائلي لأسماء مشحون بقلاقل ومشاكل يأتيها صهدها كل حين من أسرتها ومن أسرة زوجها السابق - يأتي توتر آخر في مجال العمل خصوصا بالنسبة لفؤاد.

هذه المرة كانت بدايته مع الشيخ حميد. يدير هذا الأخير المؤسسة التعليمية الخصوصية، ويسهر على تدبير شؤونها المالية والإدارية، لكن سياسة العالم ألقت بثقلها و شظاياها على المشروع. قرار الإغلاق المفاجئ الذي صدر في حق المدرسة الخصوصية ارتبط بالعلاقات بين الدولتين المغربية والتركية. كانت هناك محاولة انقلاب على الرئيس التركي، وفشلت في نهاية المطاف. كثرت التحليلات والاحتمالات لكن أصابع الاتهام ركزت بالأساس على زعيم قديم في

حزب العدالة والتنمية. ملياردير له مشاريع كبيرة مزجت بين المال والسياسة، وبفضله عرفت تركيا داخل حزبها الحاكم امتدادا إعلاميا واقتصاديا وثقافيا كبيرا في آسيا كما في أفريقيا.

في عدة دول من إفريقيا كما آسيا انتشرت مؤسسات تعليمية تابعة لتوجّه واحد ونظام تعليمي واحد، جعلت الارتباط بين قيم الحزب وأهداف التعليم والتربية. سياسة عالمية معاصرة ومستفيدة من أحدث نظريات التواصل والإعلام والعمل المؤسساتي والتدبيري...

تحاليل عديدة لا تنتهي يتابعها الشيخ حميد ولا يستسيغها. يرفض منطق الحكم عليها الذي يجعل الأرزاق مقطوعة بسبب سياسة العلاقات الدولية. لا يرى عيبا في استمرارها، لكن ما يقرؤه حولها ويسمعه في تحاليل البرامج الإعلامية يجعله يندهش لقدرة السياسية على تغيير مسار جميع القطاعات. هي سياسة جديدة لاستئصال فكر وخطة الإخوان المسلمين. فبعد أن عرفت انتصارا في مصر وتونس والمغرب، تعود لكي تعيش الحصار والإقصاء والتراجع. لكن تركيا كانت داخل مرحلة تاريخية متقدمة عن كل هذا. كان الصراع بين زعماء الحزب الواحد. يستغرب الشيخ حميد حينما يرى أخًا يحارب أخاه.

في مدة شهر وبعد أن انطلقت السنة الدراسية الجديدة وانخرطت العائلات في يوميّ التعليم والعمل، انقلب كل شيء وتم تشميع الأبواب ونقل التلامذة إلى مؤسسات أخرى. وجد الشيخ حميد نفسه محاصرا داخل الإقصاء الجديد، هل انتهى العمل داخل الجماعة ومعها؟ لا يفهم تناقضات السياسة بقدر ما يفهم ما

تبقى من مصالح داخلها. لا يخاف على مبادئه التي تلقاها مع الجماعة وفي الزاوية. حتى علاقاته متميزة ووازنة هنا وهناك. حتى مشاريعه والحمد لله متنوعة، والحياة ميسورة، لكن النجاح والتفوق ليس هو مجرد العيش الآمن. ما دامت السياسة تخترق البيوت وتغير مسار الأذواق والأفكار والأرزاق، لابد للإنسان داخلها أن يستبق ويمارس قوانينها.

اليوم قطاع التعليم، وغدًا، من يدري، ربما يغلقون العلاقات التجارية والاقتصادية. لكنهم لم يغلقوا هذا المجال بعد. فكّرَ الشيخ حميد كشريك في مركز الاستيراد والتصدير الذي يديره السيد فؤاد، في أن يباشر العمل بإدارته بمدينة الدار البيضاء. استشار الجماعة، لكنها لم توافقه الرأي. باشر الحضور في عين المكان، وجد أن شخصية السيد فؤاد ناجحة في تغطية العمليات الرسمية وغيرها. شخصية اكتسبت الاحترام كذلك. بقدر تواضعها بقدر ضبطها للمسؤوليات وقيامها بها.

لكنه، ما لم يكن بحسبان لا السيد فؤاد ولا الحاج كمال وشركائه، هو عمليات التفتيش والمراقبة الدقيقة التي أصبحت تخضع لها مخازن البضاعة التركية المستوردة. ولعل المدة لتي تلت رجوع السيد عبدالكبير والسيد فؤاد وانشغال هذا الأخير بقضية سناء الوردي، وظهوره الإعلامي هنا وهناك في فرنسا، وغيرها من المتغيرات، وإغلاق المؤسسات التعليمية الخصوصية التابعة للجماعة، كلها عمليات أجّلت التجارة الموازية التي تغطّيها تجارة الأواني والألبسة التركية.

السيد عبدالكبير وقد رفع يده عن مثل هذه التجارة. تحول من شخصية في الظل إلى شخصية في الواجهة والعلن. ربما جعل مقودها ومشعلها بين أيدٍ جديدة، لكنه في طور تجفيف ومحو كل آثار له فيها. وكأن شيئا لم يكن. لكن الورطة الآن تعيشها هذه الشركة التي تلوّثت سمعتها في الدوائر الاستخباراتية، وتورّطت في ملفات تصفية الصراعات السياسية بالخصوص في بلد تركيا. حتى تجارة الذهب لم تخلُ من تهمة السوق السوداء.

بادل الشيخ حميد مناقشة ومقاسمة هذه القلاقل مع الحاج كمال. كلاهما قلق فعلا حول ما يجري وإلى أين سيسير. اتفقا على جعل العمل أكثر حذرا وأبعد عن الشبهات. حتى المبررات التي تشرعن هذه السوق السوداء بدأت تتغير عواملها ولُعبها في الحقل الساخن الذي ارتبطت به ألا وهو حقل سوريا والشام والعراق. تغيرت الموازين والمواقف فكان ذلك مضايقة للخيوط والأوردة التي تمدّها بالحياة والتحكم في الأحداث.

داخل كل هذه التفاعلات والمتغيرات سيكون فؤاد مضطرا للتفكير في بديل. لكن البديل سبقه التوتر. أصرّ الشيخ حميد على أن يدير مكتب الاستيراد والتصدير. وخلال عمليات البحث عن حلول، كانت علاقة السيد عبدالكبير العمري مع السيد فؤاد قد توطّدت، وفكّرا، هما الاثنان، في فتح مكتب جديد لهذه التجارة وهذه المبادلات، فالسوق لا تعدم من موارد ومن علاقات. قرار خلق إزعاجا بين مكونات الجماعة. اعتبر السيد عبدالجواد الأمر إنذارا بنهاية

التجارة مع بوابة تركيا. لكن الخوف كان أكبر من العمليات السرية التي تمت في سوق الذهب كما في التحف الأثرية وغيرها مما خفي وهو أعظم.

ـ ما مشكلتكِ يا أسماء؟

ـ كل ما أراه واقعا أمامي وتقول ما مشكلتي؟ سناء وقد جعلتها موظفة في الشركة. نعمة وهي سبب محنتك وقد أصبحت ممثلة للشركة في إسطنبول. ما هذا؟ وكأنك تعيد ربط الماضي بالحاضر. أشعر بخيوط تتلوى على عنقي فأختنق. على العموم أنت حر في ما تقوم به.

ـ فعلا أنا حر في ما أقوم به. شكرًا لك. وما موقعي أنا عندك؟ تريدينني ظلا وفي الاحتياط. حينما تحتاجينني أكون في خدمتِك. ألم تفكري في تشجيعي على بناء حياة جديدة. لا نحن بمتزوجين ولا نحن كمن يعيشون حياتهم ويرتاحون فيها لخياراتهم. أظن أن الساعة قد أتت لكي نفكر في فصل هذه العلاقة وفسخها. وكوني مرتاحة، لا سناء ولا نعمة ستقتحمان حياة فؤاد أو قلبه. لقد تلقيت من الدروس ما يكفي لكي أجعل لهذا القلب مقاما يستريح فيه. اجعلي لفرح أجمل حياة وعيشي بهناء.

تشهق داخل سيارتها وهي تقودها، وهو بجانبها، وتخبط على واجهة القيادة ما شغّل الكلاكسون دون إرادة، تنحرف العجلات للجهة اليمنى المترية، لكن الحمد لله استطاعت أن تفرملها قبل أن تصطدم بجذع شجرة كاليبتوس بقي صامدا وموقّعا على مرور حياة شجرة في مكان الحادث.

لم يكن حادث سير، لكنه حادث تهدّم علاقة حبّ بُنيت بالجراح والآلام. ضحّى كل واحد منهما بضعفه قبل جهده من أجل أن تستمر وتكبر كعلاقة. نزل من السيارة في غضب وانفعال. رضخ الباب وسارع خطوه راجلا بجانب الطريق. كان في حاجة إلى هواء يستنشقه وإلى سيجارة يشربها. ربما هو في حاجة إلى بحر يغرق فيه وإلى تلوث الدارالبيضاء يختنق داخله. لا يدري ما يقع. الدم يغلي بلغة قومه في رأسه المشوّش. اختلالات كبيرة في النبض والرؤية. بالكاد استدار بجانب الطريق لكي يشير إلى وسيلة نقل تقله إلى الداراليبضاء كانت رجله اليسرى قد انزلقت مسافة داخل الخط الأبيض الذي يحد الطريق المزفت ليُسمَع دوي فرامل وكلاكسون. سيارة الميغان الحمراء داست نصف جسده ووركه وهشمت رجله. تدحرجت الجثة أمتارا قبل أن تصطدم بنبات شوكي ملتف حول سياج أسلاك شائكة هي الأخرى. هل كانت أسماء تنوي الرجوع للاعتذار للسيد فؤاد وطلب ركوبه من جديد في السيارة صلحا وإطفاءً لنار الغيرة؟ بقي التقرير مفتوحا في إطار التحقيق المستمر في الملف والموضوع.

ـ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ذلك كان تعليق كاتب التقرير على الحادث بعدما وقّع نهاية رقنه وطبعه ونسخه. فتح شرفة المكتب لاستنشاق هواء متجدد. تبسّم لِبَاقةِ النرجس المتراقصة مع نسيم عليل يهب ريحا خفيفة، يداعب كل منهما الآخر. يلاحظ أن الأصيص المزخرف بفسيفساء متقن لا يحتوي سوى على هذه الزهرة الجميلة. يتذكر أن هذا النوع من النرجس لا يحتمل نباتا آخر بجانبه وفي محيطه. ينفث عليه من

سيجارته علّه يبدي مقاومة لسادية الواقف أمامه. كلاهما في شرفة مطلة على شارع لا يهدأ نبضه من حياة، وليست أي حياة طبعا.